الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

تفسير سورة يونس عليه السلام

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

تفسير سورة يونس عليه السلام

القرآن في مواجهة المادية

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت : ٩٣١١٧٠

الطبعة الأولى

رمضان ١٣٩٦ هـ

سبتمبر ١٩٧٦ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة يونس

مقـدمة :

سورة يونس من السور المكية التى نزلت بعد الإسراء . وهى كبقية السور المكية تدفع اتهامات الماديين المكيين للقرآن ، ولصاحب الدعوة عليه السلام . وتوضح الطريق إلى وحدة الله فى ألوهيته ، وباطل ما عليه الماديون بمكة من شرك ووثنية فى ماديتهم . . وتعنى — من بين الاتهامات التى يوجهها المكيون إلى القرآن والرسول عليه السلام — باتهام الرسول : بأنه ألف القرآن ونسبه كذباً لله سبحانه ، وبالرد عليه . وادعاء أنه عليه السلام قد أتى بالقرآن من عند نفسه ادعاء اشترك فيه الماديون المكيون ، وأهل الكتاب . ونسبه إلى الله — وهو كاذب فى نسبته إياه كما يدعون — لهدف ترويجه وحمل الناس على اتباعه . وإذا كانت كل سورة من السور المكية فى القرآن تركز على قضية خاصة ، فسورة يونس تركز على دفع اتهام : أن القرآن ليس من الله ، وأضيف إليه افتراء وكذباً من الرسول عليه السلام .

وسميت هذه السورة بسورة يونس : لأن الآية الثامنة والتسعين منها : تذكر قصة يونس : فى رسالته إلى مجتمع الأشوريين فى عاصمتهم Ninnweh على الضفة اليسرى لنهر دجلة ، فى مواجهة مدينة الموصل الحالية ... وفى أن

هذا المجتمع المادى إذ كفر أولا برسالته ، لم يستمر فى كفره . بل آمن بها وتاب إلى الله عندما عاد يونس إليهم ثانية ، فغفر الله له وازدهرت حياته فى الفترة التى عاشها المؤمنون فيه . وكان ذلك فى عهد الإمبراطورية الأشورية الثانية ، بعد أن ذبلت هذه الحياة واضمحلت فى عهد الإمبراطورية الأولى بسبب الذنوب والأخطاء التى ارتكبها المجتمع ، بعد إنذار يونس له أول الأمر برسالة الله : (**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** (أى لم يكن هناك مجتمع من المجتمعات المادية السابقة آمن بالله بعد كفره فنفعه إيمانه واستظل بحياة الرضا من ربه) **إلاقوم يونس ، لما آمنوا ، كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين**)(١) . فهذه الآية تعطى المثل الواقعى للمكيين ، على أن المجتمع المادى إذا تحول عن ماديته وشركه ، وآمن بالروحية الإنسانية وبالله وحده لاشريك له ، نال رضاء الله وأسقطت عنه أخطاؤه الماضية . فقصة يونس مع مجتمع الأشوريين مثل تاريخى قائم يصور أولا : عذاب الله لهم بسبب الكفر ، ثم يصور ثانيا : نعيمه لهم بسبب الإيمان .

• ثم مع هذا المثل التاريخى للمجتمع البشرى تعرضت السورة للقرآن من جانبين : تعرضت لنظرة المكيين له ، وطلبهم : إما تغييره على نحو يلائمهم كما ذكرت الآيات : ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ . أو الإتيان بآية أخرى مادية عداه ، كما فى آية : ٢٠ . وتعرضت كذلك لرد الوحى الإلهى على نظرة المكيين إليه ، كما جاء فى الآيات : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ؛

---

(١) يونس : ٩٨ .

• وتعرضت لوصفهم الرسول عليه السلام بالسحر في آية : ٢ .

• وللحديث عن البعث ، بين إنكاره من جانب المشركين الماديين بمكة ، أو إقراره من جانب الوحي الإلهي على الرسول صلوات الله عليه ، في الآيات : ٤، ٨، ١١، ٢٣، ٢٨، ٣٠، ٣٤، ٤٥، ٥٦، ٧٠ .

• ولاعتماد الماديين على شفاعة أصنامهم ، في الآيات : ٣، ١٨، ٦٦ .

• ولرد الوحي الإلهي على ما حرمه كهانهم وما أحلوه لعامة الناس : في أرزاقهم من الحرث والأنعام ، في آية : ٥٩ .

• ولرده أيضاً على ادعاء هؤلاء الكهان : أن لله ولداً ، في آية ٦٨ .

• ولذكر بعض قصص المجتمعات المادية السابقة التي استمرت على كفرها حتى أسقط قادتها وزعماءها وأتى بآخرين على أنقاضهم . فذكر قصة نوح في آيات : ٧١، ٧٢، ٧٣ .. وقصة موسى وهارون في آيات : ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، وذلك كعبرة لمجتمع الماديين بمكة .. وكدليل يثبت به فؤاد الرسول عليه السلام وعزمه في الاستمرار في دعوته . والسور المكية كلها يشارك بعضها بعضاً في مقاومة الوثنية المادية التي طغت على دين إبراهيم بمكة ، وفي العودة بهذا الدين إلى صفائه في وحدة الألوهية لرب العالمين . والوثنية المادية هي انحرافات في السلوك البشري والاعتقاد النفسي تتمثل في مظاهر عديدة . وقد استأثرت انحرافات الوثنية المادية بمكة في سورة يونس – بجانب الشرك في صورة بدائية باتخاذهم صنما ، أو بنسبة الولد إليه ، وإنكار البعث ، كمظهرين عامين لاتجاه المادية في كل عهد ، وفي كل مجتمع مادي – بالهجوم على القرآن وعلى الرسول عليه السلام .. وبالخروج عما عرف لله : في الحلال

والحرام فى أرزاق الناس .. وبمدى الاعتماد على شفاعة أصنام لاتنفع ولا تضر . وهى انحرافات تدل على عدم الموضوعية فى الجدل ،وعلى الاستغلال السىء للعقيدة وكسب أموال الناس عن طريقها بالباطل ، وعلى الضعف والهوان والمذلة فى عبادة ما ليست له قيمة ذاتية فى نفسه .

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب الحكيم (١) أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين (٢) إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٤)

« ا ـ ل ـ ر ، تلك آيات الكتاب الحكيم » (إن الألف ـ واللام ـ والراء من أحرف الهجاء العربى بصورة مؤكدة ، لايختلف فيها إنسان من هؤلاء المكيين الماديين . وعلى نحو تأكد هذه الأحرف الثلاثة بين حروف الهجاء العربى .. كذلك تأكد : أن ما يتلى على رسول الله عليه الصلاة والسلام تباعاً من الوحى هو كتاب الله فى حكمته ، وقرآنه فى صدقه فلا ينبغى أن يوجد بين الناس من يشك فى كتاب الله ، كما لايوجد بالفعل بين العرب من يشك فى هذه الأحرف الثلاثة : أنها من أحرف الهجاء العربى .

والقضية قضية معادلة : أحد الطرفين يساوى الطرف الآخر . والألف ـ

واللام — والراء ، هنا : إما قسم حذفت منه واو القسم .. وإما مشبه بهحذفت منه أداة التشبيه .

وفى الحالة الأولى قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم » .. مدخول القسم . . بينما فى الحالة الثانية : مشبه : أى أن القرآن فى واقعية وجوده يشبه الأحرف الثلاثة فى واقعية وجودها بين أحرف الهجاء العربى).

« أكان للناس عجباً : أن أوحينا إلى رجل منهم : أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين » .

(ولكن هؤلاء المكيون الماديون تملكهم العجب عندما علموا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام — وهو واحد منهم — قد كلفه الله برسالة من عنده : بأن ينذر المعارضين بالعذاب فى الدنيا والآخرة ، ويبشر المؤمنين بأن عملهم الصالح فى دنياهم سيكون تقدمة حسنة لهم يوم الجزاء عند ربهم . ومن شدة تعجبهم واستغرابهم . رموه بأنه على وجه التأكيد : ساحر ومخادع .. يبغى خداعهم لينقل إليه الزعامة من أيديهم . والزعامة ، والجاه والمال : أخوف ما يخاف على فقده الرؤساء فى المجتمعات المادية . وإنذار الرسالة الإلهية لهؤلاء الماديين هو فى بيان خطئهم فى قيادة المجتمع ، وعدم صلاحيتهم وصلاحية توجيههم القائم على الظلم والعبث والفساد . ومعنى ذلك طلب تخليهم عن القيادة فى المجتمع وتركها لمن يؤمن بالقيم العليا ، وهم المؤمنون بالله وحده ، ولو كانوا بالأمس أتباع هؤلاء الزعماء . فمن غير شك : أنهم يذهلون عندما يعرفون أن واحداً منهم لم يكن من الرؤساء بينهم : يريد أن يسوى الآن بينهم وبين أتباعهم فى الحقوق والواجبات ، وفى الاعتبارات البشرية .. يريد أن يقضى على امتيازاتهم التى يحرصون عليها ، والتى جعلتهم أسياداً ، وجعلت غيرهم أتباعاً لهم . ومن شدة الذهول لايتصورونه الآن رجلا عادياً ، بل

يتصورونه عندئذ رجلا قد غلبت عليه مهارة الخداع ، إذ جرأ على أن يواجههم ، وهم الزعماء ، بما يسقطهم ويجعل منهم أناساً عاديين ، كغيرهم سواء. وصاحب المهارة فى الخداع كان يسمى ساحراً عندهم) . «إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون » ؟ (والآن تحدد السورة فى هذه الآية : من يجب أن يعبد على سبيل الحقيقة؟: من هو الرب الذى يشرف الإنسان أن يكون طيعاً له ؟ :

إنه أولا : هو الله الذى خلق الوجود كله.. خلق السموات والأرض. ولم يخلقهما دفعة واحدة ، ولا فى لحظة زمنية واحدة ، وهو القادر على ذلك. وإنما خلقهما على مراحل وفى أوقات متعددة ، كى يعلم الإنسان من ذلك : أن طبيعة الوجود — ومنها طبيعة الإنسان — لاتنتقل من العدم إلى الوجود .. ومن النقص إلى التمام .. ومن الجزء إلى الكل .. ومن الفرد إلى المجتمع ، إلا بعد مراحل أو بعد فترات. أى أن الأمر الذى يحكم الوجود كله : هو قانون التطور.: هو قانون التدرج وليس قانون الثورة أو قانون الانقلاب . ولذا : المجتمع السيىء يأخذ مهلة من الوقت ويدخل فى عديد من الظواهر الاجتماعية حتى يسقط ويحل غيره — وهو على النقيض منه — محله . والمجتمع الصالح لا يصل إلى مستواه فى الصلاحية إلا بعد أن يمر بمراحل وبفترات ، كل مرحلة وكل فترة منها تقربه إلى مستوى الصلاحية . ويستحيل من أجل ذلك أن يتحول إلى المستوى الصالح فى لحظة ، أو على دفعة واحدة . وكى يعلم الإنسان كذلك أن التدرج فى الخلق أو فى العمل هو طريق الإتقان له . وقيمة أى عمل هو فى مدى جودته وإتقانه . وتقدير خلق الله للوجود بستة أيام يقصد منه فقط : هذا التدرج فى الخلق ، وليس العدد الحسابى فى أرقامه . وأنه — سبحانه — ثانياً ، بعد خلق

هذا الوجود، يدبر أمره وشأنه تدبيراً محكماً ، وفقاً لإرادته التى تمثلها قوانين الحياة والحركة فيه . وأنه ثالثاً،ليس هناك من شفيع يشفع لمسيء أوضعيف فى المجتمع البشرى ، إلا بعد أن يأذن هو: له . فالله المعبودحقاً هو : الخالق.. وهو المدبر لخلقه.. وهو مالك الشفاعة وحده. وهو وحدهالذى لهالربوبية.. وهو وحدة الذى يجب أن يعبد ويطاع . وليست الأصنام — وليس ما عداها مما سواه — لأنها لاتملك خلقاً ، ولاتدبيراً ، ولاشفاعة . وهذا التحديد الواضح لرب العالمين يجب أن يذكر الماديين فى المجتمع المكى — وفى أى مجتمع آخر ، بعده — ويلفت انتباههم إلى مراجعة أنفسهم فيما يعتقدون،وفيما يقفون من موقف التصدى لدين الله) . « إليه مرجعكم جميعاً ، وعد الله حقاً ، إنه يبدأ الخلق ، ثم يعيده : ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم: شراب من حميم،وعذابأليم بما كانوا يكفرون».

(كما تؤكد السورة هنا أيضاً وقوع البعث والجزاء الأخروى ، والبعث ووحدة الألوهية : هما الأساسان فى العقيدة ، اللذان تقف منهما المادية موقف المعارضة الشديدة : فتكفر بالله وحدة .. كما تكفر بعودة الإنسان إلى مرحلة ثانية فى حياته ، وبالتالى تكفر بالجزاء فيما وراء الحياة الدنيوية . فتقرر السورة البعث : « إليه مرجعكم جميعاً » .. وتؤكد أن وقوعه وعد من الله ، وهو وعد حق وصادق : « وعد الله حقاً » .. وتدلل على وقوعه بأنه إعادة للخلق على نحو ما بدأه الله وحده ، فهو داخل فى مقدور الله الخالق : و« إنه يبدأ الخلق ثم يعيده » .. وتوضح أن وقوعه ضرورة للجزاء : جزاء المحسن فى عمله فى دنياه ، وجزاء المسيء فى مايصنعه فى الدنيا : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » ، وأمر البعث إذن أمر غير مستحيل لأنه فى دائرة القدرة الإلهية . بل أمر تقتضيه المصلحة العامة للبشر كلهم ، لأنه التمهيد للجزاء على الأعمال التى تقع فى الدنيا من الناس جميعاً .. ولذا وعد الله به) .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

وفى الكون دلائل عديدة على قدرة الله فى مدى محيطها وشمولها : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (فقد خلق الشمس مصدر ضوء وإشعاع لحرارتها على هذه الأرض ، لمصلحة الإنسان والكائنات الأخرى عليها . وخلق القمر مصدر نور فى ظلام الليل ، وجعل نوره متعدد المستويات ، حسب منازل وقوعه من الشمس والأرض ، ليعلم الإنسان بدخوله هذه المنازل تباعاً : عدد السنين ، والشهور ، والأيام ، والحساب عامة ، مما يترتب على ذلك : تنظيم حياته ومعيشته) «ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» (وخلق الله للشمس والقمر على هذا النحو ، هو لحكمة ومصلحة . ولكن لا يدرك هذه الحكمة والمصلحة إلا من عنده قبول للعلم والمعرفة .. من هو خال عن التأثر بوضع معين فى حياته . من لا يصد آيات الله فى كونه عن أن تعطيه الدليل على وحدته وقدرته .. من لم يتمكن منه الاتجاه المادى ، فلا يرى فى الوجود : إلا الطبيعة ، والأسباب الذاتية فيها ، فى حركتها ونظامها) . « إن فى اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون». (وكذلك اختلاف الليل والنهار : ذلك مظلم ، وهذا مضىء . . ذلك للسكون والهدوء ، وهذا للحركة والعمل ، واختلاف خلق الله فى جميع طبقات الوجود : فى السماء وفى الأرض — وهو اختلاف متعدد الجوانب والأنواع — أمارات

بينة على وحدة الله فى ألوهيته وفى قدرته . ولكن لا يدركها إلا من عنده استعداد للإيمان . . من عنده استعداد للتقوى وتجنب الانحرافات فى المعتقدات والسلوك . . من عنده استعداد للتحول من وضع مسيء للبشرية ، إلى وضع آخر يعبر عن الإنسانية فى قيمها الرفيعة . وما جاءت به هاتان الآيتان من الأمارات الدالة على وحدة الله وقدرته فى الخلق والإيجاد : أمثلة محسوسة يمكن أن يستخلص منها وقوع البعث ، طالما وعد به الله . لأن إعادة الموتى لا تفوق فى إيجادها أى شاهد من هذه الشواهد فى الوجود الدالة على القدرة الإلهية .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

وهنا يواجه القرآن فى هذه السورة المنكرين للبعث مواجهة مكشوفة بالعقاب الذى ينتظرهم : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (وتناولهم بأوصاف أصحاب الاتجاه المادى والوثنية المادية . وأوصافهم هى ، كما جاءت هنا : إنكار لقاء الله فى اليوم الآخر من الزعماء ، والتشكك فيه من المستضعفين على الأقل .. والرضا بالحياة الدنيا على أنها هدف أخير للإنسان فى حياته .. والاطمئنان بها وبمتعها وبجزائها ، والركون إليها وحدها .. والإعراض عن كتاب الله وهدايته ، إن لم يكن الصد عن سبيله . وهى صفات الماديين ، وصفات المشركين ، وصفات الكافرين المعرضين عن دين الله . والمشركون المكيون ، وعبدة الأصنام فى مكة هم نوع من الماديين ، ومن أصحاب الاتجاه المادى على العموم . فإذا ذكرتهم الآية هنا

فيما وصفت ، .فإنما تذكرهم بالسمات العامة لأصحاب الاتجاه نفسه . وعقوبتهم التى ذكرتها الآية الثانية ، وهى انتهاء أمرهم إلى النار والبقاء فيها، بسبب انحرافاتهم فى الاعتقاد والسلوك . . هى فى واقع الأمر : عقوبة لكل من يتأثر بالاتجاه المادى فى حياته . والقرآن إذن فى حديثه عن الشرك ، والأصنام ، والمنكرين لليوم الآخر ... إلخ .. لايقصد الوضع السائد فى مكة وحده على عهد الرسول عليه السلام . وإنما يقصد المادية وأصحابها ، كما وصفتهم الآية السابقة فى أى عهد . وما كان بمكة هو عهد من عهودها، وما يوجهه القرآن إلى المكيين الماديين ، هو ما يوجه إلى الماديين فى أى مجتمع إنسانى بعد ذلك إلى يوم البعث) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

وفى مقابل هؤلاء الماديين ، فى سوء سلوكهم ، وباطل اعتقادهم : يأتى المؤمنون ، فى إيمانهم بالله وحده ، وحسن سلوكهم مع أنفسهم وفى علاقاتهم بغيرهم . وجزاؤهم هو على الضد من جزاء أولئكم : « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » . (وأما الذين قرنوا العمل الصالح والسلوك الحسن بإيمانهم بالله رب العالمين فى دنياهم .. فإن إيمانهم سيقودهم فى الآخرة إلى نعيم فى جنات تمر بها أنهار وقنوات عديدة . وهو نعيم مادى يقترن بنعيم معنوى آخر ، وهو القرب من الله تعالى ، والصفاء بين بعضهم بعضاً) . «دعواهم فيها: سبحانك

اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم : أن الحمدلله رب العالمين » . (ومظاهر هذا النعيم المعنوى : أن عبادتهم لله فى الجنة ودعاءهم إياه فيها هو : تسبيحهم به ، وأن تحية بعضهم لبعض تعبر عن السلام النفسى والصفاء فيما بينهم ، وأن آخر ما يختتمون به الدعاء هو الحمد والثناء لله رب العالمين ، الذى لا يستحق العبودية فى الوجود سواه ، على ما وفقهم إلى الإيمان به والهداية بكتابه فى التطبيق والعمل) .

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

وهناك ظاهرتان إنسانيتان من ظواهر الطبيعة الإنسانية ، يمر بهما الإنسان المادى مروراً عابراً ، ولا يستخلص منهما النتائج اللازمة لهما : الظاهرة الأولى أن الطبيعة الإنسانية فى الإنسان تدفعه إلى أن يتعجل تحقيق ما هو مرغوب للنفس من خيرات هذه الحياة ، وأن يستبعد فى الوقت نفسه : ما قد يلحقها من أذى وشرور وأضرار بسبب سوء التصرف أو طغيان الشهوة . ولو أدرك الإنسان أن الله كما يملك بقدرته الشاملة تحقيق الخير المطلوب له .. يملك أيضاً إلحاق الضرر والشر به ، عندما يرفض هدايته فى كتابه والإيمان به وحده .. لو أدرك ذلك : لخشى الله وراجع نفسه فيما رفضه بالأمس ، وتحول فى غده عن الرفض إلى الإيمان : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى

إليهم أجلهم » (إن الله لا يعجل للناس تحقيق الشر فى حياتهم ابتلاء أو عقابا ، كما يستعجلون هم الخير منه فى حياتهم . أى إن الله يمهل لحكمة : إلحاق ما يستحقه الناس من عذاب وعقاب بهم فى دنياهم . ولا يعجل بهذا العذاب والعقاب لهم ، على نحو ما تمليه طبيعتهم عليهم من استعجال الخير منه . فسبحانه يملك الحكمة فى تصرفاته ، وهم تتملكهم الشهوات والأهواء فى رغباتهم . والحكمة تصحبها التؤدة دائماً ، بينما الشهوة تقترن بالعجلة والاندفاع . ولو أسرع الله إلى عقاب الناس على مايعتقدون وما يعملون — على نحو من طبيعتهم فى التعجل والاندفاع — لانتهى أمرهم فى الحياة ، وقطعت عليهم فرصة العودة إلى الله ، والكف عن الباطل الذى كانوا يمارسونه . وهم يمرون بهذه الحقيقة مروراً عابراً ، دون أن يقفوا عندها قليلا ، لعلهم يكتشفون خطأهم فى التمادى فى الكفر ، والاستمرار تحت التأثر بالاتجاه المادى فى الحياة) « فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون » (وإنكار لقاء الله فى الآخرة — أو التشكك فى هذا اللقاء — خاصة مميزة من خواص أصحاب الاتجاه المادى . وقد يكتفى القرآن بذكرها وحدها — كما هنا — تعبيراً عن أصحاب هذا الاتجاه . والمعنى : أنه طالما الماديون المكيون — وكذلك الماديون عداهم — لايدركون : أن فى قدرة الله أن يعجل لهم بالعقاب لهم ، كما يستعجلون الخير منه لأنفسهم . . فنتركهم وشأنهم سادرين فى طغيانهم بماديتهم ، ومتنكبين الطريق السوى تحت تأثرهم باتجاههم ، إلى أن يحل بهم العقاب فى دنياهم ، أو يلحقهم الجزاء فى آخرتهم . وترك الله لإنزال العقاب بهم عاجلا : هو لحكمة ، وليس عن عجز منه) . « وإذا مس الانسان الضر ، دعانا : لجنبه ، أو قاعداً ، أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (والظاهرة

الثانية من ظواهر الطبيعة الإنسانية : أن الإنسان لايصبر على الأذى والضرر الذى يصيبه ، ولا يتحمله لفترة طويلة . بل سرعان ما يلجأ إلى الله — دون إيمان به من قبل — ويسأله رفع ما به من أذى ، ويلح فى سؤاله على أى وضع هو فيه : نائم .. أو جالس.. أو واقف . لأنه لايطيق الاستمرار فيما هو فيه من: ضيق نفسى ، أو ضيق مادى . فإذا أزال الله عنه ما لحقه من أذى وسوء: سرعان ما ينسى نعمة الله عليه هذه ، ويستمر فى طريقه الباطل كأن لم يكن أى أذى قد لحقه قبل الآن وزال عنه . فهو يسرع فى الشكوى والدعاء والتضرع وقبول المذلة . . كما يسرع فى النسيان وفى المرور دون أى توقف عند الأحداث التى ألمت به ثم زالت . أى أنه يسرع فى قبول المذلة . . ويسرع أيضاً فى نسيانها ، وممارسة الطغيان مكانها . يسرع فى السؤال والدعاء والرجاء — ويسرع بعد ذلك فى الاستكبار والإعراض . يقبل على الله فى الشدة .. ويدبر عنه فى الرخاء . وكذلك شأنه مع الآخرين فى مجتمعه : يقبل على من يرى النفع فيهم ، ويدبر عنهم عندما تقضى منفعته منهم . وهذه ظاهرة للطبيعة البشرية التى لم تباشر طريق الهداية الإلهية ، ولم تضعف من أنانيتها بإيمانها بالله . هى ظاهرة للطبيعة البشرية التى لم يصقلها الإيمان بالله ، ولم تتعلم من كتابه : أن الدنيا مرحلة أولى ، تليها مرحلة الآخرة فى حياة الإنسان ... وأن الوقوف عند الدنيا وحدها قبول لما تفرضه الفتنة بمتعها . وفى الفتنة بمتع الحياة الدنيا: إنماء لأنانية الإنسان ولخضوعه لاتجاهات المادية وحدها . ولو أن الإنسان عندما تنزل به الكوارث والأضرار ويناشد الله أن يدفعها عنه ، يقف قليلا عندما تكشف عنه .. لأدرك : أن صاحب القدرة على كشفها — وهو الله — كفيل بأن يعرضه من جديد لما هو أشد منها ، ولذا فهو فى حاجة إلى ولايته وحمايته على الدوام . وإدراكه لذلك

يسوق إلى الايمان به والتحول عن كفره وماديته : ولكن من تغلب عليه المادية يخرج عن معيار المنطق الإنسانى ، كما يخرج عن حدود الطريق السوى للسلوك الإنسانى . وتزين له ماديته وإسرافه فى الخروج : ما له من وضع قائم فيما يعتقد وفيما يسلك ويعمل) .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

ويتجه القرآن الكريم الآن فى هذه السورة إلى مخاطبة الماديين المكيين ليحدد وضع مجتمعهم القائم . وهو وضع المجتمع البشرى الذى آلت إليه السيادة فى الأرض ، بعد أسلافهم ليختبر فيها : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » (فالله سبحانه وتعالى قد نفذت إرادته فى تغيير المجتمعات البشرية التى سبقت الماديين المكيين فى وقتهم على عهد الرسالة للرسول عليه السلام . وإرادته فى التغيير لأى مجتمع مرتبطة ببقاء المجتمع المتغير على وثنيته

المادية ومعارضته لهداية الله التي يأتي بها رسول من قبله . أي ببقائه على الكفر ، رغم إنذار الرسول له). «وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا »(وهذه المجتمعات التي تغيرت وسقطت قيادتها المادية لم يقع لها التغيير ، ويحل بها السقوط إلا بعد أن جاءتها رسل الله بكتب الهداية الإلهية ، ثم رفضت هي اتباعها والإيمان بالله وحده) . « كذلك نجزى القوم المجرمين » (وهكذا : يقع الجزاء للمجتمع — أى مجتمع — بسقوطه وتغيير قيادته وزعامته بعد تحقق خطوتين نحوه : الخطوة الأولى إنذاره بكشف السلوك السيء الذى يمارسه وتوضيح الطريق السليم للاعتقاد والعمل . ويقوم بهذا الإنذار والكشف رسل من عند الله . والخطوة الثانية عدم جدوى هذا الإنذار فى تغيير القادة لمسلكهم فى المجتمع ، والإصرار على استكبارهم وغيهم فى المعاملة وفى تحديد الروابط بينهم وبين من عداهم فيه . فإذا وقع التغيير بالفعل فإن ذلك بسبب مباشرة زعامته : الجرائم العديدة فى سياسته وفى قيادته وجرائم زعامة المجتمع المادى هى الدافعة إلى تغييره ، حسب إرادة الله التى تتمثل فى قانون الخلافة على الأرض) . « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر : كيف تعماون » (والله قد جعلكم أيها المكيون الماديون فى وقتكم الحاضر — على الرسول عليه السلام بسبب رسالته — أسياداً فى مجتمعكم تخلفون المجتمعات السابقة عليكم فى الخلافة على الأرض . وقدجاءكم الرسول وهو محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه— برسالة الله رب العالمين فى كتاب الله ، وهو قرآنه المجيد . وجاء ليكشف لكم نتائج الوثنية المادية : عليكم ، وعلى الناس معكم ، وليوضح الطريق إلى الهداية الإلهية التى سلكها مجتمع إبراهيم وإسماعيل فى مكة من قبل . وقد كانت نتائج المادية فى المجتمعات السابقة من عهد إبراهيم .. إلى محمد عليهما السلام ، هى التى أدت إلى إسقاط

قيادات هذه المجتمعات وزوال زعاماتها . والآن ينتظر دوركم وموقفكم .
هل هو موقف القيادات المادية السابقة من بعد إبراهيم وإسماعيل من رفض الهداية الإلهية بعد إتيان الرسول بها ، أم هو موقف المؤمنين الذين يبتغون رضوان الله ويتبعون سبيله ؟ . إن الأيام ستكشف هذا الموقف وتجليه : « لننظر : كيف تعملون» « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله » . (ولكن هؤلاء الماديون المكيون — وهم الذين لايرجون لقاء الله فى اليوم الآخر ، ويتشككون فى وقوعه — يحاولون هنا نسبة القرآن إلى الرسول عليه السلام وإن كان فى صورة مقنعة فيطلبون منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن : لا يتعرض فيه إلى نقد زعامتهم المادية فى اعتقاد الأصنام شركاء لله سبحانه ، وفى تدخل هذه الزعامة فى الملكية الخاصة من الحرث والأنعام بالحل والحرمة لغير المصلحة العامة ، وفى ادعاء صلتها بعلم الغيب عن طريق استراق الشياطين لعلم السماء .... إلى غير ذلك مما يتصل بالخرافة . . أو يبدل ما فيه من نقد : فيحذفه ويعوضه بما يثنى عليهم وعلى توجيهم واتجاههم فى الحياة .ومعنى طلبهم هذا : أن يضعوا رسول الله عليه السلام ورسالته معه فى خدمة زعامتهم المادية. على نحو مايطلب أصحاب نظم الحكم فى المجتمعات المعاصرة من رجال الفكر ودعاة الإصلاح: أن يسخروا تفكيرهم ودعوتهم الإصلاحية فى ترويج نظام حكم معين لدى عامة الناس فى المجتمع) . « قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف — إن عصيت ربى — عذاب يوم عظيم » . (ولذا كان جواب الرسول عليه السلام بوحى من الله إليه : أن هذا القرآن ليس منه ، وأنه لا يملك التغيير والتبديل لذلك من عند نفسه فيما جاء إليه عن طريق الوحى . إذ وظيفته الآن فقط هى اتباع ما يوحى إليه : فى تبليغه ، وفى تطبيقه فى حياته الخاصة . وطالما وظيفته من الله وظيفة محددة ،

فإنه عليه السلام يخشى لو خرج عنها أن يناله غضب الله ، ويحل به عذابه في يوم له رهبة شديدة ، وهويوم الجزاء . والرسول عليه السلام بهذا الجواب يصرح : أنه بعيد كل البعد عن تأليف القرآن وصنعته كما يدعى هؤلاء . . وأنه بعيد بعد ذلك عن الاحتراف بالقيم العليا والمبادىء العامة التى تحدد نظام المجتمع والسلوك الأخلاقى للأفراد فيه ... وأنه يخضع لها نفسه قبل أن يطلب من الآخرين الخضوع لها فى حياتهم . .. وأنه أمين لا يخرج عن حدود الأمانة ، مهما كلفه حرصه على أدائها أداء كاملا : من تحمل تذمر المتذمرين ، والحاقدين عليه بسببها . وهذا الجواب يدل من جانب آخر على : أن المبادىء العامة لا تقبل المساومة . . وأن النقد للأوضاع الفاسدة فى المجتمع يجب أن يرتفع به صوت نذير من بين أفراده ، وإن أغضب الزعماء والرؤساء فيه) . « قل : لو شاءالله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعلقون » ؟ (والدليل على أنه عليه السلام لم يؤلف القرآن ولم يصنعه ، ولا يملك لذلك : التغيير والتبديل فيما يوحى إليه من القرآن ، وأن هذا القرآن رسالة الله وحده : أنه كان من الممكن : أن لا يكلف هو بتبليغ هذه الرسالة . وعندئذ لا يستطيع أن يتلو عليهم منها حرفاً واحداً . وكان من الممكن أيضاً : أن لا يكلف بها واحد من أبناء هذا المجتمع المكى العربى على الإطلاق . وعندئذ كان هؤلاء الماديون لا يدرون من أمرها شيئاً . وقد مكث الرسول عليه السلام بينهم سنوات قبل الرسالة . ومع ذلك لم ينطق بكلمة فيهم ، مما جاء إليه بعد الرسالة من وحى القرآن ، مما يدل على أن هذا القرآن لم يكن من عنده . وإنما كان من عند الله وحده ، ولكن هذا الوضع لا يدركه إلا من يستخدم المنطق البشرى ويقبل نتائجه . أما من يقع تحت تأثير الوثنية المادية ، فقلما يبعد تأثيرها عن نفسه ، ويتجرد لحكم العقل وحده . وادعاء : أن القرآن من تأليف الرسول

عليه السلام ، هو ادعاء قال به المكيون الماديون . . وقالت به اليهود والنصارى من أهل الكتاب ، حرصاً على بقاء الزعامة الدينية العامة بينهم . ويقول به المستشرقون اليوم ، مرددين حجة أسلافهم من أهل الكتاب بالأمس . ولكن غايتهم اليوم هى : توهين علاقة المسلمين بدينهم ، ودفعهم إلى التفكك ، ثم التوزع على طوائف أهل الكتاب الباقية أو أهل الإلحاد فى الوقت الحاضر . وحجة الرسول عليه السلام بأنه مكث سنين عديدة بين أهل مكة إلى سن الأربعين من عمره ، ومع ذلك ما تلا منه حرفاً عليهم ، ولا عرف واحد منهم كلمة منه . . كافية فى تبديد هذا الادعاء الباطل . ويضم إلى هذه الحجة : ما ذكره عليه السلام قبلا : من أنه لايستطيع التغيير والتبديل فيه . فالإنسان المؤلف قد يتأثر فى مؤلفه ، ولو بطريق غير مباشر بأوضاع المجتمع الذى يعيش فيه ومن هنا قد يأتى فيما يؤلفه بما يوافق اتجاه الزعامة والرؤساء فى المجتمع . فإذا تجرد الكتاب عن التأثر بظروف المجتمع وأوضاعه ، وتمحض كلية لنقد الفاسد منها ، وتجريح الزعامة فى مسلكها ومعاملتها : كان بعيداً عن تأليف مؤلف فى هذا المجتمع ، وبالتالى كان ذلك آية على أنه ليس من بشر ، وأنه من عند الله ، نطق به فرد فيه ، كلف بتبليغه للناس . ثم تصميم الرسول على عدم التغيير والتبديل فيه فى وجه المعارضة المكية الشديدة له طوال الفترة المكية كلها وهى ثلاثة عشر عاماً ، مع ضعفه وضعف المؤمنين معه فى هذه الفترة ومع قوة اضطهاده واضطهاد أتباعه فيها . . أمارة واضحة وقائمة : على أن القرآن من عند الله وحده . وإلا ، ربما كانت تملى عليه ظروف الاضطهاد فى بعض الأوقات أن يجنح إلى الملاينة ، فيأتى بما يرضى الزعماء مغيراً أو مبدلا اليوم ، لما قاله لهم بالأمس . وهذا لم يحدث إلى أن كان فتح مكة ونصر الله لرسالته نصراً مبيناً .

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو كذب بآياته ، إنه لايفلح المجرمون »
(وهؤلاء المكيون الماديون بادعائهم نسبة القرآن إلى الرسول عليه السلام ، وبمطالبتهم إياه — لذلك — بتغييره أو بتبديله ، قد كذبوا فى واقع الأمر بكتاب الله وآياته ، كما أنكروا أنه ليس من عنده ، وإنما من عند محمد عليه السلام وبذلك يكذبون القرآن فى موضوعه ، وفى نسبته إلى الله معاً : فلا ماجاء فيه موضع رضا منهم ، بل طلبوا التغيير والتبديل فيه ، ولا ما كان فيه من نسبته إلى الله : موضع اعتراف بينهم . وهم يجرمون فى حق الله وحق الإنسانية بموقفهم من القرآن على هذا النحو . لأنهم عندئذ يصدون عن سبيل الله ، تلك السبيل التى تمثل خطوط الهداية الإلهية للناس جميعاً . وليس بعد الصد عن سبيل الله جريمة يرتكبها إنسان ، لأنها جريمة ذات تأثير سلبى على البشرية كلها . ولكن على وجه التأكيد لايفلح المجرمون فى حق البشرية بالصد عن سبيل الله ، وبالإلحاد ، وترويج الباطل والأكاذيب . وقد كان فتح مكة آخر مرحلة فى مراحل النصر الإلهى علي هؤلاء المكيين الماديين رغم محاولاتهم العديدة ومؤامراتهم السرية والعلنية علي رسول الله والمؤمنين معه أثناء إقامته بينهم ، وعلى القرآن والدعوة ، وترويج الاتهام تلو الآخر ضده . وقد سجل التاريخ هزيمة المجرمين فى حق دين الله ، وعدم فلاحهم فيما نشطوا فيه معادين إياه) .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

والماديون المكيون فى موقفهم من القرآن هذا الموقف لا يدلون على أنهم فى مركز قوة فى المنطق والحجة، ولا فى وضع بشرى صحيح يشير الى احتفاظهم بالكرامة الإنسانية : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم » . (فهم يتجهون بالعبادة والخضوع والاستسلام إلى ضعيف لايقدر على الضر والنفع . . إلى عديم الإرادة ، وعديم الحركة ، وعديم الحياة . . إلى أصنام من حجر ، هى اللات والعزى وغيرها . واتجاههم إليها بالعبادة أمارة جهل وضعف فى المنطق ، وتفريط فى الكرامة البشرية) « ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ».(ومع جهلهم وضعف منطقهم، وتفريطهم فى كرامتهم البشرية بعبادتهم هذه الأصنام .. فإنهم يزدادون حمقاً ، وجهلا ، وضعفاً ، وتفريطاً : بادعائهم : أن هذه الأصنام ستشفع لهم عندالله : أخطاءهم . وفى مقدمتها الكفر بالله . إذ كيف تتحول الأحجار إلى مصدر شفاعة وقربى يتقرب بها لله جل شأنه) ؟ « قل : أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض، سبحانه وتعالى عما يشركون » . (ولذا يجب الرد عليهم إذا تحدثوا عن شفاعة هذه الأصنام لهم: أنهم يتحدثون عن أمر لاحقيقة له فى هذا الوجود . ولو كانت حقيقة من حقائق هذا الكون لعلمه الله جل شأنه وأخبر به رسوله عليه السلام . لأنه لايغيب عن علمه شيء فى الأرض ولا فى السماء . فهم بهذا التصور فى أصنامهم كأنهم يخبرون الله بما لا يعلمه . تنزه الله جل جلاله عن ذلك ،

وارتفع فوق ما يجعلونه شركاء له من أصنامهم) . « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » . (والناس جميعاً ينتمون إلى آدم وحواء فهم يكونون أمة واحدة . ولكنهم يتفرقون ويختلفون من جيل إلى جيل : حول مايعتقدون ، وبسبب مايؤولون فيما يعتقدون . وقد كان المؤمنون بمكة على عهد إبراهيم وإسماعيل جماعة واحدة وأمة واحدة . ولكنها انقسمت فيما بعد على نفسها حول ملة إبراهيم . وآل انقسامها إلى أن أصبحت على عهد الرسول محمد عليه السلام جماعة تدين بالوثنية المادية، وتقيم من الأحجار أصناماً تعبد : على أنها شركاء لله ، وشفعاء لهم عنده . فالاختلاف حول الدين هو سبب التفرقة فى الأمة الواحدة . وكذلك الشأن بين أهل الكتاب المؤمنين برسالة موسى أو برسالة عيسى : ماتفرقوا بينهم إلى شيع وطوائف إلا بسبب اختلافهم فيما جاء به موسى أوجاء به عيسى من عندالله). «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » . (واختلاف الأمة الواحدة إلى فرق ينطوى على أن بعضاً منها فى اختلافه مع ماعداه : قد يتجاوز حدود الرسالة الإلهية فى الدين . . إلى ما يناقضها تماما . أى قد يتجاوز الإيمان بها .. إلى الكفر ببعضها على الأقل : ولولا أن هنالك قضاء من الله سبق بتأجيل الفصل فى الاختلاف بين الفرق فى الأمة الواحدة إلى يوم الجزاء .. لنفذ أمره فى عقاب من كفر برسالة الله : كلا أو بعضاً ، ولصفيت الأمم تباعاً من الكافرين والملحدين . وبقاء المكيين الماديين إذن — حتى عهد رسالتك — وقد اختلفوا مع غيرهم فى أمة إبراهيم واسماعيل ، وانحرفوا فيما اختلفوا فيه ، بحيث كفروا بالله وحده : صورة من صور هذا القضاء العام لله بتأجيل الفصل فيما اختلف فيه المختلفون إلى يوم البعث والجزاء فى الآخرة . ولهذا لاتضق صدراً أيها الرسول — صلوات الله عليك — بهم وبمعارضتهم ، وبادعاءاتهم فى جانب القرآن وفى جانبك) .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ولايكتفى هؤلاء بأن ينسبوا القرآن للرسول عليه السلام ، ويطلبوا إليه بالتالى تبديل ما فيه أو تغييره : « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه». (بل يرفضونه جملة وتفصيلا كأمارة دالة على رسالته ويطلبون أمارة مادية دونه : تدل على صدقه فى الرسالة ، كتلك الأمارات التى جاء بها الرسل السابقون كأمارة موسى فى رسالته إلى فرعون وملئه ، وهى أمارة العصا التى التقطت جميع ماأتى به الساحرون من المصريين ، وأمارة عيسى فى رسالته لبنى إسرائيل من تكليم الناس فى المهد ، وإبراء الأكمه والأبرص) « فقل : إنما

الغيب لله، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ».(ورفض هؤلاء المكيين الماديين للقرآن هو الآن تحد لإرادة الله ، وليس سعياً منهم فى سبيل الإيمان به . لأن اختيار نوع المعجزة أو نوع الأمارة المؤيدة لصدق الرسول — أى رسول من قبل الله — هو من تحديد الغيب الإلهى وحده ولادخل للرسول المعنى : بهذا التحديد . ولذا فجواب الرسول عليه السلام على هذا الموقف منهم هو : أن يوضح لهم : أن اختيار المعجزة شىء يتعلق بغيب الله وحده .. وأن رفض القرآن وإن كان فى صورة طلب أمارة أخرى هو تحد للإرادة الإلهية ، وهنا فالمتوقع والمنتظر هو عقاب الله ، وما عليهم إلا أن ينتظروا هذا العقاب ، وهو كذلك سيكون من المنتظرين لوقوعه عليهم ، لأنه أمر لاشك فيه) ، « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا ، قل : الله أسرع مكراً ، إن رسلنا يكتبون ماتمكرون » ، (هم لايعترفون بالرسول ويطلبون أمارة مادية على صدقه ، ولكن ما هو شأنهم مع الله جلت قدرته ؟ هل إذا أنقذهم الله من محنة اشتدت عليهم وأنعم عليهم برحمته ، وأعاد لهم الحياة المادية رغدة من جديد ، يعترفون بآيته هذه ؟ ، وهى آية مادية تدل على قدرة الله ووحدته فى الألوهية ؟ ، إنه إذا أذاقهم رحمة من بعد ضراء مستهم وخلصهم من أذى الفاقة والجوع ، أو أذى القلق والخوف ، فإنهم يسارعون إلى المكر السيىء وتدبير المؤامرة تلو الأخرى ضد دين الله ، إنهم يصرون على البقاء على مالهم من وضع ، وهو وضع الوثنية المادية ، إنهم يسارعون إلى ذلك ، ولكن يجب أن يعلموا أن الله أسرع فى تدبير مايحفظ دينه ويرد كيدهم ، ويحول دون القضاء على الإيمان والمؤمنين به ، كما يجب أن يعلموا أن خبثهم ومكرهم السيىء وتبييتهم ضد هداية الله أمر تسجله الملائكة لحساب يوم الجزاء ، وإذا أمهلهم الله على مكائدهم كى يعطيهم فرصة

المراجعة والعودة إلى الإيمان بالله وحده .. فإن وقوع الجزاء الأخروى أمر لا مفر منه) . « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم .. دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق» (وكذلك شأنهم على هذا النحو مع كل آية مادية تدل على فضل الله عليهم ، وعلى أنه وحده هو الذى كان له الفضل فى تغيير وضعهم السيىء الميئوس منه إلى وضع أحسن كان مرجواً لهم. فالله سبحانه هو الذى يرعى الناس جميعاً فى سيرهم فى البر والبحر. والمؤمنون يشكرونه بالإيمان به دائماً على إنقاذه إياهم من ورطة تورطوا فيها ، أو من أزمة أخذت بخناقهم ، وعلى سلامة وصولهم على العموم . أما الوثنيون الماديون فهم إذا وقعوا فى أزمة خانقة بأن حوصروا فى سفينتهم فى البحر بريح عاصف وأمواج عالية عاتية ، واتجهوا إلى الله عندئذ أن ينجيهم من هذه الشدة ، على وعد منهم بأن يخلصوا له فى الإيمان به واتباع دينه إن هم نجوا وبقوا على قيد الحياة .. سرعان مايسلكون طريق الغى والضلال ، ويعيدون موقف التحدى لدين الله من جديد . إنهم لايعرفون الله إلا وقت الأزمة. فإن ولت رجعوا إلى ما كانوا عليه من الفساد والظلم وانتهاك حقوق الآخرين) . « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون» :(ولكن اعتداء أى إنسان على غيره ، أو ظلمه له : يعود أثره على المعتدى أولا فى واقع الأمر . وهؤلاء الماديون المكيون يجب أن يعلموا : أنهم بممارستهم العدوان، والفساد، والظلم فى أسلوبهم فى الحياة، وفى معاملتهم لمن سواهم من الضعفاء فيهم .. إنما يمارسون مايعود عليهم هم بالمضرة. وإن استمتاعهم بجاه الزعامة وما تجر إليه من متع أخرى، هو استمتاع مؤقت

بتوقيت هذه الحياة الدنيوية ، ولايحول بينهم وبين ماسيلقونه من جزاء فى الآخرة : يوم يبعث الناس جميعاً ويخبرون بما هو مدون فى سجل أعمالهم : من حسنات وسيئات) . « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها : أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » . (فهذه الحياة الدنيا فى قيمتها تشبه أرضاً نزل عليها ماء المطر فترعرع ما بها من نبات ينتفع بثمارة الناس والأنعام على السواء .. إلى أن بدا زخرفه وماله من زينة تتحلى بها هذه الأرض ، وهنا فى اللحظة التى كان يتصور فيها أصحابها أن كل شىء فيها أصبح فى مقدورهم وتحت تصرفهم ، جاء أمر الله فى وقت ما بالليل أو النهار بزوال ما عليها : بعامل العواصف أو الزلازل ، فزال ولم يبق له أثر ، كأن لم يكن شىء كان هنا فى الوقت القريب . فما فى الدنيا يخدع بمنظره ، ويغرى بالإقبال عليه وبمحاولة امتلاكه والتأثر به ، ولكنه غير مضمون البقاء فى حوزة من يمتلكه .. ما فى الدنيا له بريق ، ولكن لا يسفر لمعانه عن ضوء ثابت . والماديون الذين تغريهم الدنيا يقبضون على ماء فى أيديهم يتسرب بين أصابع اليد بعد لحظات . وهم يعتمدون بذلك على مالا يعتمد عليه . ويركنون إلى أمر فى طغيانهم وعبثهم وعدوانهم ، قلما يركن إليه . ويفوتون على أنفسهم بذلك : ما ينتظر المؤمنين فى حياتهم الأخروية من نعيم مقيم ومتعة دائمة) . « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (وعلى هذا النحو من التشبيه والتوضيح : يفصل الله آياته فى الكون ويكشف عن الطريق التى يسير فيها المتصدون لدين الله والمعارضون لرسالة رسله ، وعن الغاية التى ينتهى مسيرهم إليها . وهى غاية الخسران بعد الضلال . ولكن لايفقه تفصيل الله لآياته ولمعالم الطريق المعوج ، والطريق الآخر المستقيم إلا من عنده استعداد وقبول للتفكير

فيما يدعى إليه من رسالة الله، وتقييمه ومراجعة وضعه هو فى السلوك والاعتقاد. ومن عنده هذا الاستعداد ، هو ذلك الذى لايقع تحت تأثير الاتجاه المادى ولا تتحكم فيه شهواته وأهواؤه) .

وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٣٠)

ودعوة الله بما يوحى به إلى الرسول — أى رسول — هى دعوة إلى الاستمتاع بالحياة الإنسانية فى المرحلة الثانية .. هى دعوة إلى دار السلام فى الآخرة التى تصفو فيها العلاقات بين الناس، وترتفع فوق الأحقاد والخصومات السائدة فى الدنيا، والطريق إلى هذا الهدف هو الإيمان بالله وحده .. هو اتباع هدايته فيما جاء من رسالته . وليس جزءاً من اتباع هذه الهداية : اعتزال الدنيا وتحريم متعها على النفس ، ولكن الذى يعتبر جزءاً أصيلا فيها : هو عدم الإسراف فى الاستمتاع بمتعها ، وعدم الطغيان بما يغرى فيها : من قوة مادية : هى قوة العصبية بكثافة العدد ، وقوة المال بكثرته .. « والله يدعو إلى دار

السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . (ودعوة الله فى رسالته مع أى رسول تتركز فى تخليص الناس من عذاب الآخرة ، وتيسير أمر الحياة فيها عليهم ، وهو يعين على الإيمان وعلى الهداية إلى طريقه المستقيم : من يختاره لذلك. ومن يختاره الله ليمنحه العون على الإيمان والهداية : هو من تتوفر لديه الرغبة فى تجنب الظلم والعدوان ، والعبث والفساد .. هو من تكون لديه القابلية فى التحول إلى محسن فى عمله وتصرفه ، فوق قيامه بالعدل بينه وبين الآخرين..هو الإنسان غير المادى . لأن المادى أنانى فى عمله وتصرفه . والأنانية تحول دون مباشرة العدل فضلا عن مباشرة الإحسان . فمن يؤثرهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان والهداية للصراط المستقيم : هم الضعفاء فى المجتمعات المادية ، والتابعون للزعماء فيهم . وهؤلاء هم موضع الأمل فى الإيمان لكل رسول يأتى إلى مجتمع من هذه المجتمعات : إذ الزعماء والرؤساء أنفسهم فى هذه المجتمعات المادية هم الذين يفرضون التوجيه المادى فيها لمصلحتهم ، ويباشرون العبث والفساد ، وعدم العدل ، وعدم الإقرار بحقوق الآخرين ، ولا يريدون أن يسألهم أحد ممن عداهم أو يحتكم بهم إلى مبدأ عام وقيمة إنسانية عليا . هم أنفسهم مصدر المبادىء وغيرهم عليه التبعية لهم .. هم المنتفعون ، وغيرهم يشقى فى سبيل نفعهم ومصلحتهم) .« للذين أحسنوا : الحسنى ، وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . (والمحسنون فى دنياهم — وهم المؤمنون الذين يعطون لغيرهم من إنسانيتهم فى غير مقابل ، يجزون بالحسنى وزيادة عليها . يجزون جزاء طيباً مضاعفاً ، تبدو فية رعاية الله لهم ، كما تحفظ عليهم كرامتهم البشرية ، ويدفع عنهم كل مهابة فى يوم الجزاء . وتفتح لهم أبواب الجنة ، لأنهم أصحابها الخالدون فيها) . « والذين كسبوا السيئات : جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً

من الليل مظلماً، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». (وعلى العكس من هؤلاء المحسنين. يجازى الآخرون الذين كانوا يقترفون السيئات ويباشرون الانحرافات فى تصرفاتهم فى الحياة الدنيا .. الذين كانوا يعرضون عن هداية الله ويصدون عن سبيله . فهؤلاء كانت السيئات من كسبهم الخاص، وبإرادتهم وتصميمهم عليها هؤلاء يرون يوم الجزاء وقد اشتدت بهم المهانة والمذلة، واسودت وجوههم كأنها غطيت بقطع من الليل مظلم. من فرط ما أحست به نفوسهم من الخزى وخيبة الأمل فى النجاة .هؤلاء يدفعون إلى النار ، لأن مصيرهم قد تقرر فيها إلى ما شاء الله) . « ويوم نحشرهم جميعاً، ثم نقول للذين أشركوا. مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين » . (وما يلحقهم من الذلة والصغار يوم الحشر — وترى أمارات ذلك بادية على وجوههم — بسبب خيبة الأمل فى نجاتهم من المصير إلى النار. لأنهم كانوا يعتقدون فيما عبدوهم وجعلوهم لله شركاء وأنداداً له فى الألوهية والعبادة . أنهم شفعاءلهم ومخلصون إياهم من عذابهم المنتظر يوم الجزاء ، فإذا بهؤلاء الشركاء والأنداد يتبرأون منهم فى هذا اليوم الذى يجمع فيه الجميع . بعد أن يفصل بينهم وبين من كانوا يعبدونهم بالأمس ، ويعلنون لهم. أنهم لم يكونوا لحظة من اللحظات موضع عبادة منهم، ولم يشعروا كذلك بأنهم كانوا موضع عبادة لهم . ويشهدون الله على صدقهم فيما يقولون ويعلنون ، وهو كافيهم فى التصديق عندئذ . إنما فى الواقع : كانوا يعبدون أوهاماً ، صورتها لهم شهواتهم وأهواؤهم.. صورتها لهم شياطين الحياة الدنيا ، وهى إغراؤها ومفاتنها ، فانصرفوا عن الله إلى تلك الأوهام، علهم يحققونها يوماً ما : منافع مادية بين أيديهم . وكم تكون خيبة الأمل قاسية عليهم آنئذ فى هذه اللحظة الحرجة ، التى تحدد فيها مصير الجزاء لهم بالعذاب فى نار

جهنم ، وليس هناك من عاصم يعصمهم من قضاء الله فيما قضى به) . «هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ماكانوا يفترون» .(إذ وضح لهم الآن فى هذه اللحظة الحرجة : أولا : كل فرد من هؤلاء الأفراد فى هذه اللحظة مرتبط فقط بما قدم من أعمال . فهو يراجع عمله فى الدنيا ويختبره . وسينتهى حتما من مراجعته واختباره . إلى أنه عمل سيء .. وثانياً : أنهم جميعاً الآن أمام الله الحق ، الذى لاإله إلاهو ، وتحققوا بذلك : أنهم عادوا إليه وهم أحياء ثانية . وقدكانوا ينكرون العودة إلى الحياة ثانية . بعد موتهم فى دنياهم . . وثالثاً : أنه ذهبت عنهم الأوهام والأباطيل والضلال فيما كانوا يعبدون من دون الله ، وفيما كانوا يكذبون فيه من أجل ماكانوا يعبدونهم : أنداداً لله وشركاء له) .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

بعد وصف البعث والجزاء فيه للمحسن وللمسيء فى عمله وتصرفاته فى هذه

الدنيا على السواء .. تعود سورة يونس إلى محاورة الوثنيين الماديين . لا بما يقنعهم ، بل بما يسجل عليهم رفض الإقناع بعد توافر أماراته فى نظر العقل السليم ، وعند غير المتحيز فى نظرته إلى الأمور . فهم لايقتنعون لأنهم طغاة بماديتهم . والدعوة الإلهية لاتخسر من تكرار المحاورة معهم ، وإن كان الأمل ضعيفاً أو معدوماً فى إيمانهم . بل هى ستكسب من تكرار المحاورة التى تتوفر فيها الأمارات بجانب ما تدعو إليه .. ستكسب مؤمنين بها جدداً من غير هؤلاء الزعماء والرؤساء فى المجتمعات المادية .. وستكسب ثبات من آمن بها من قبل ، على إيمانه .. وستكسب رأياً عاماً فى تاريخ البشر على توالى العهود ضد الوثنية المادية ومن يمارسون اتجاهها فى الحياة ، على مدى الزمن : «قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون » ؟ (وتطرح هذه الآية أربعة أسئلة موجهة إليهم ، وتجيب عنها — فى الواقع أو على لسان الحال — بجواب واحد . أما الأسئلة الأربعة فهى : السؤال الأول : من هو الرازق للناس جميعاً وللأنعام كلها عن طريق ماء المطر ونبات الأرض ، مما تأكل منه الناس والأنعام ؟ . والسؤال الثانى : من الذى يملك إعداد الإنسان بالسمع والبصر .. إعداده بالإدراك والعقل ، وبذلك يتميز عن بقية المخلوقات ، وأمرت الملائكة من أجله : أن تسجد له ؟ . والسؤال الثالث : من الذى يخلق الحى من عدم .. ويحيل الحى إلى الميت .. من الذى يخلق النقيض من نقيضه ؟ . والسؤال الرابع : من الذى يدبر أمر هذا الوجود كله فى نظامه وحركته ، ويدبر أمر المجتمعات الإنسانية فى تغييرها بعد أن أنشأ الإنسان صاحب عقل .. وكفل له مورد الرزق الدائم .. وأوجده حياً مما لاحياة فيه ، وسيبعثه حياً بعد موته فى دنياه ؟ . وأما الجواب الواحد على ذلك فهو أنهم سيقولون : الله . وهم سيقولون ذلك حتماً : إما

بالتعبير والنطق ، أو بالتصديق النفسى الداخلى. لأنه ليس هناك مما يرفع إلى مستوى الألوهية ممن يعظمونه — فى القديم والحديث — يستطيع أن يخلق إنساناً ، ويوفر له مصادر رزقه فى حياته الدنيا ، ويعيده بعد موته إلى حياة ثانية ، ويدبر له أمر مجتمعه فى قيامه أو سقوطه . وليس هناك إلا الله هو الذى يستطيع ذلك . فلا الأصنام فى الوثنية المادية البدائية ، ولا الأشخاص ولا العلم ، ولا المجتمع ، ولا الحزب ، ولا الإنسانية فى الوثنية المادية التقدمية .. تستطيع أن تقترب من ادعاء ذلك . وهذه الإجابة تنطوى على الدليل المقنع على وحدة الله فى ألوهيته ، وإن لم يقتنع به الماديون الوثنيون . وهو تسجيل عليهم بأن عدم إيمانهم لايعود إلى عدم الدليل على الإيمان . وإنما يعود إلى أمر نفسى لديهم وراء العقل والمنطق . ومن هنا كان ما أمر به الرسول عليه السلام : أن يوجهه إليهم هو تسجيل : أنهم غير مؤمنين ، بعد أن كشف الدليل على أنهم يرجعون فيما يعتقدون إلى غير العقل والمنطق . « أفلا تتقون » . (أى إنكم لاتتقون ولا تؤمنون بعد أن أجبتم بقولكم أو فى قرارة أنفسكم : بأن الله وحده هو الخالق ، والرازق ، والمدبر ، وأنه مالك أمر الحياة والموت). « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون »؟ (وقد أعلن الله هنا لذلك تسجيل هذه النتيجة التى تنبثق من ذلك الدليل . وهى أن الحق الآن فى جانب الله الذى هو رب الناس جميعاً ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال .. أى ليس ما يقابل الحق فى الوجود وفى منطق الإنسان سوى عدم الحق. وعدم الحق هو الضلال . والآن كيف تتمسكون بالضلال وتنصرفون عن الحق؟. إنكم لم تؤمنوا بالله الحق الآن ، وانصرفتم عن الإيمان به إلى الإيمان بأمر آخر . ولكن انصرفتم عندئذ إلى الباطل ، لأنه ليس وراء الحق إلا الباطل . وبهذا التسجيل للدليل المقنع ولنتائجه تكسب الدعوة من أسلوب المحاورة ، وإن لم

تكسب هؤلاء الماديين الوثنيين) . « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا: أنهم لا يؤمنون » (وعلى هذا النحو من تسجيل الله لنتيجة الدليل السابق : وهو أن حكم الله على هؤلاء الماديين الوثنيين الذين فسقوا وخرجوا فى جرأة ووقاحة عما يحتمه المنطق السليم والواقع من إيمان به سبحانه إلى الكفر والإعراض عن كتابه وهدايته . بأنهم قوم لا يؤمنون ، أى ليس من استعدادهم النفسى والاجتماعى الإيمان بالله.. هو حكم ثابت لا يمحى ولا يتغير بتغير العهود وأساليب الجدل والمنطق) . « قل هل من شركائكم . من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل الله يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، فأنى تؤفكون » ؟ (وينتقل أسلوب الحوار الآن من حملهم على الإقرار .. إلى إلزامهم بما لا يقرون به . وتسألهم الآية الآن : هل من شركائهم من يبدأ الخلق فى الدنيا ، ويعيده يوم البعث فى الحياة الآخرة ؟ . وإذا أقر هؤلاء الوثنيون الماديون : بأن الله هو الذى يبدأ الخلق فى هذه الدنيا ، فإنهم ينكرون قطعاً : البعث والحياة الآخرة ويمعنون فى الإنكار له ، إمعانهم فى إنكار وحدة الله فى الألوهية . والسؤال لا يقصد منه إذن أن يجيب هؤلاء الماديون : بنعم .. وإنما يقصد منه تبليغهم — ليكون لهم حجة عليهم فى الآخرة — بأن الله هو الخالق أولا ، وهو الذى يعيد الحياة إلى الأموات يوم مبعثهم للحساب . فهناك بعث وهناك حياة أخروية . وترتب الآية على هذا التبليغ : أنهم تحولوا إلى الأصنام وانصرفوا عن هذه الحقيقة الإلهية إلى ما يناقضها تماماً ، فأنكروا البعث كلية ، وبالتالى : ليس هناك سؤال يرد لديهم عمن يباشره) . « قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى إلى الحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق : أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى ؟ فما لكم كيف تحكمون » ؟ (وعلى غرار أسلوب الحوار فى الآية السابقة من أن المقصود بالسؤال هو

الإلزام بما لا يقرون، وليس حملهم على الإقرار به.. تطرح هذه الآية السؤال عمن يملك هداية الإنسان : أهو شريك من الشركاء الذين ادعوا : أنهم أنداد لله ، أم هو الله وحده ؟ . ويجيب عنه الرسول عليه السلام بوحى من الله: أن الله سبحانه وحده هو القدير الذى يرسم طريق الهداية للانسان ، وهو الذى يعينه عليها كذلك ، وليس أحد سواه . وتكليفه عليه السلام بإعلان هذا الجواب ، هو تكليف له بتبليغه إلى الناس كافة ، ومنهم هؤلاء الماديون المكيون ، وإلزامهم بحجة الرسالة فى عدم اتباعهم هداية الله : يوم الحساب. كما هو تسجيل عليهم أمر معارضتهم لما يوفره الدليل من عناصر الإقناع . وهى : إذا كان الله — وليس الشركاء المزعومون — هو صاحب الهداية للبشر وهو الذى يعين عليها ، فهو الأولى باتباع الناس له ، دون غيره من الشركاء .. هو أولى من أولئكم الذين يفقدون فى أنفسهم إمكانية الهداية ، ويحتاجون فيها إليه وحده . فإنكارهم للبعث ومعارضتهم فى اتباع هداية الله فى كتابه لا تساير الحقيقة فى ذاتها . ولذا: فصلهم فى هاتين الحقيقتين بالرفض لها هو فصل يجانب الصواب ويجانب الحق) . « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون » . (فأكثرهم لا يتبع إلا الظن والوهم فى التصور .. لا يتبع واقعاً ، ولا ما يمليه المنطق الإنسانى السليم . فتحولهم عن الإيمان بالله إلى عبادة ما جعلوهم أنداداً وشركاء له .. إنما هو تحول قائم على توهم المنفعة أو دفع الضرر . والاعتماد على الظن أو التوهم فى التصور ليس بديلا عن الاعتماد على الحق والواقع . وهنا يكون التخبط فى السلوك واتخاذ المواقف فى الحياة . والله يعلم بحقيقة ما يفعلون ويباشرونه من عمل ، وأنه ليس إلا صادراً عن ظن أو وهم) .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

وتتصدى سورة يونس الآن مرة أخرى لدفع اتهام الماديين المكيين — ومعهم أهل الكتاب كذلك — للرسول محمد عليه السلام بأنه أتى بالقرآن من عند نفسه ، وأضافه إلى الله كذباً وافتراء : « وما كان هذا القرآن : أن يفترى من دون الله » . (أى وما ينبغى أن يقال فى شأن هذا القرآن : إنه كان من غير الله ودونه ، ونسب إليه افتراء .. لايصح أن يقال : إن محمداً — عليه السلام — جاء به من عند نفسه ، وألفه متأثراً فيه بحضارة قومه وبيئتهم الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، ثم ادعى أنه من عند الله ، كما يزعم كتاب الشعر الجاهلى ، حاكياً هذا الادعاء عن بعض القساوسة المستشرقين) . « ولكن تصديق الذى بين يديه » . (بل هو من عند الله أوحى به إلى محمد عليه السلام ، وليس من عمله . وآية أنه من عند الله : أنه مطابق للكتاب السماوى قبله ، وهو كتاب موسى وعيسى عليهما السلام فى أصالته) « وتفصيل الكتاب — لا

ريب فيه — من رب العالمين » . (وأمارة أخرى على أنه من عندالله : أنه الكتاب المفصل للعقيدة والشريعة ، وأنه الذى ترجع البشرية إليه وحده فى شأن ما وقع من اختلاف فى كتاب إلهى سبق : (**إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين**)(١)) « أم يقولون : افتراه؟ قل: فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين» . (فإن هم أصروا بعد ذلك —أى بعد تأكيد : أنه من عند الله ، وأنه مطابق للكتاب الإلهى السابق عليه . وأنه المرجع للاختلافات التى أحيطت بهذا الكتاب السابق — على أن الرسول : محمداً عليه السلام جاء به من عندنفسه وأضافه إلى الله افتراء عليه .. فيجب عليك أيها الرسول—صلوات الله عليك— : أن تتحداهم : بأن يأتوا بسورة مثله ، وأن يجمعوا من يستطيعون أن يجمعوه من أنصارهم لمعاونتهم ومساعدتهم فيما يأتون به . فمحمد بشر وأنتم تقولون : إنه ألف القرآن . وأنتم كذلك بشر ، وأعوانكم العديدون بشر أيضاً . فإذا لم تستطيعوا أن تأتوا بجزء شبيه لما فيه — ممثلا فى سورة من سوره — فالحجة قائمة عليكم ، والقرآن حينئذ ليس من تأليف بشر ، وإنما هو من عند الله أوحى إلى بشر ، وهو محمد عليه السلام) .« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله . كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» . (وبتحديهم اتضح : أنهم قالوا كذباً فى شىء — وهو القرآن— لم يدركوا أبعاده ولم يحيطوا بعلمه بعد .. قالوا : إنه من تأليف محمد وليس من عندالله ، وحكموا عليه بذلك بادىء ذى بدء قبل أن يلموا بموضوعه ، ويقفوا على الإعجاز فيه .. قبل الوقوف على مراميه وتأويله . وماقالوه كذباً فى شأن القرآن هو نمط من رفضه ، وطريق تكذيبهم للأمر قبل دراسته واستيعابه هو طريق يهرع إليه

---

(١) النمل : ٧٦ ، ٧٧ .

الماديون فى كل عهد . وعلى هذا النحو من التكذيب كان تكذيب الماديين السابقين لرسالات الرسل السابقة ولكتاب الله المنزل عليهم . وليس لمثل هذا التكذيب الفج من نتيجة سوى نتيجة واحدة . وهو أخذ المكذبين بتكذيبهم ، وعقاب الله لهم فى دنياهم وآخرتهم أمر لازم لظلمهم . فقدظلموا أنفسهم ، وغيرهم معهم فى مجتمعهم بصدهم عن سبيل الله ، وظلموا الحق فى ذاته بالادعاءات والاتهامات الكاذبة للتشويش عليه ، وإن لم تنل منه) . « ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين » . (وسيظل فريق من الناس يؤمن بكتاب الله إلى يوم البعث . وسيظل فريق آخر منهم لا يؤمن به إلى يوم البعث كذلك : « فالذين لا يؤمنون بالآخرة (وهم الماديون فى الحياة الدنيا الذين يقولون : (إن هى إلا حياتنا الدنيا)(١) قلوبهم منكرة (للقرآن ولأى كتاب لله سبق) وهم مستكبرون)(٢) (أى متعالون عن الإيمان به) . وموقف هؤلاء الماديين فى كل عهد من القرآن ومن المؤمنين به يجليه القرآن فى حقيقتين : الحقيقة الأولى : بقاؤهم على الشك والتشكيك فيه طوال حياتهم : (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله) (٣) . والحقيقة الثانية : أنهم حريصون على مقاتلة المؤمنين بالقرآن .. إلى أن يردوهم عن دينهم إن استطاعوا : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن

---

(١) الأنعام : ٢٩ . (٢) النحل : ٢٢ .

(٣) الحج : ٥٥ ، ٥٦ .

استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة)(١) . وإخبار الله فى هذه الآية : بأن فريقاً من الناس – قل أم كثر – سيظل مؤمناً بالقرآن إلى يوم البعث .. وأن فريقاً آخر – قل أم كثر – سيظل غير مؤمن بالقرآن إلى يوم البعث : يفيد : أن الإيمان بالله لا يفنى ، وأن الكفر به لا يفنى كذلك ، وأنهما ظاهرتان بشريتان ، طالما الدنيا لها بريق وخداع ، وطالما الطفولة البشرية فى التصور قد تمتد فى الإنسان وتطغى على جميع مراحل التطور فيه . وهنا : المؤمن بالله على سبيل الحقيقة لا ييأس من طغيان الموجة المادية فى مجتمع بشرى يوماً ما . . كما يكون على حذر دائماً من معاشرة الماديين مهما أبدوا من صور المودة . لأنهم فى تربص مستمر للانقضاض على المؤمنين فى أية لحظة يرون فيها القدرة على هزيمتهم. والله سبحانه يعلم هؤلاء : من فسادهم وعبثهم ، ويعلم ماتنطوى عليه صدورهم من غل وحقد) . « وإن كذبوك فقل : لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون » . (وعندما يعلن هؤلاء تكذيبهم لك – أيها الرسول صلوات الله عليك ، وكذلك لكل داعية بالقرآن بعدك – يجب أن تعلن لهم فى وضوح : أنه ليست هناك مسئولية جماعية عن العمل الحسن أو السيىء . وإنما هى مسئولية شخصية للفرد عن نوع العمل الذى أتمه . فأنت أيها الرسول مسئول وحدك عن عملك ، وهم بريئون منه. وهم مسئولون وحدهم عن عملهم ، وأنت وكل مؤمن معك برىء منه . وجعل المسئولية عن العمل مسئولية فردية – وليست جماعية – يبرز استقلال الإنسان ومعالم وحدته الذاتية فى نظرة الإسلام إليه ، على العكس تماماً : مما تراه بعض فلسفات القرن التاسع عشر المادية من : (المسئولية الجماعية) تأثرت فى نظرتها هذه : بعقيدة : (الخطيئة) وتحمل

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

البشر لها جيلا بعد جيل ، فى بعض المذاهب الدينية) . « ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . (إن هؤلاء الماديين لا تؤمل فى إيمانهم كثيراً . فهم يبدون كبقية الناس : لهم آذان يسمعون بها ، ولهم عيون يبصرون بها . ولكن حقيقة أمرهم بالنسبة للايمان بالله وحده ، وبالنسبة للقرآن كتاب الله أنهم يغلقون آذانهم عن سماعه. ويغمضون أبصارهم عن رؤية شيء منه . والأمر بالنسبة لهم أمر نفسى قبل أن يكون أمراً عضوياً : (**والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر** (أى صمم وانسداد) **وهو عليهم عمى**)(١) . فهم من الوجهة الداخلية النفسية يضعون حائلا كثيفاً من الأوهام والتصورات تحول دون أن يتأثروا بماتبلغ به الناس من وحى يوحى إليك . بالأخص بشأن مايتعلق باعتقادهم فى أصنامهم وشركائهم ، ومايفرضونه هم فى السلوك والمعاملات من : حل ، وحرمة فى حياتهم . فأملك أيها الرسول فى إيمانهم يكون عندئذ بمثابة من يؤمل : فى أن يحيل الأصم الأبله إلى إنسان يسمع ويفكر والأعمى الى إنسان يرى ويبصر . وهذا أمر خارج عن طاقتك كإنسان أو كداعية . وتبليغ الوحى إليهم فى عهدك ــ وتبليغ القرآن فى الأجيال بعدك من الداعين إليه ، إلى أمثالهم فى المجتمعات المادية ــ هو للتسجيل عليهم أكثر من الأمل فى إيمانهم .. هو لإقامة الحجة عليهم وليس لإقناعهم . لأنهم لا يقتنعون . ولذا كان قوله تعالى : (**ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم**)(٢) . . ظاهرة اجتماعية لا تتخلف بالنسبة للملحدين الماديين) .

---

(١) فصلت : ٤٤ .

(٢) الحج : ٥٥ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

وساعة أن يعاقب الله هؤلاء الماديين على عدم إيمانهم بالله وحده ، وعلى إنكارهم للبعث يوم الحساب .: يكون عادلا معهم غير ظالم لهم . فقد أعدهم بالإدراك والعقل ، وأرسل إلى كل أمة رسولها يحمل معه كتاب الله ، يبسط فيه هدايته للناس ، ويعلن لهم مسئوليتهم الفردية أمام الله على نوع ما يباشرونه من عمل: «إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون» . (فإن كان هناك ظلم بعد ذلك فليس من جانب الله ، إنما هو من جانب الناس الذين لم يؤمنوا وأصروا على الكفر والصد عن سبيل الله ، لأنهم لم يستخدموا ما لهم من عقول استخداماً سليما فى تقييم ما عرض عليهم من هداية الله . بل ظلموا أنفسهم متأثرين بتقاليد مجتمعهم فى الرياسة والزعامة . وكذبوا الرسول الذى أرسل إليهم . لأنهم خشوا من أن يتقلد هو الزعامة فى المجتمع دونهم . وكان تكذيبهم لرسالته من أجل ذلك : تعبيراً عن حقدهم نحوه . ولم يتحرروا من مسئولية ما كان عليه آباؤهم فى العقيدة والفعل ، رغم ما تعلنه الهداية الإلهية من المسئولية الشخصية لكل فرد . وبذلك كله خضعوا لأعراف مجتمعهم ، وظلوا يتحركون فى دائرتها ، دون أن يتقدموا خطوة نحو التحول

إلى الإيمان) . « ويوم يحشرهم — كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم — قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » . (وسيدرك هؤلاء الماديون الذين كذبوا بلقاء الله ،وأنكروا البعث والآخرة ،ولم يهتدوا إلى الإيمان : أنهم قد خسروا ، يوم يحشرون مع غيرهم عندما تبعث الأموات ، ويصبح هذا اليوم حقيقة ماثلة أمام عيونهم .. خسروا الكثير فى حياتهم الإنسانية ، ولم يعوضهم عن هذه الخسارة : أنهم استمتعوا بما فى الدنيا من : جاه ، ومال ، وولد .. استمتعوا فيها بالرياسة والزعامة ، وبالقوة المادية والطغيان فى مجتمعاتهم . إذ أنهم يوم الحشر والبعث سيرون : أن إقامتهم فى الدنيا تبدو كأنها ساعة من النهار عرف فيها كبراؤهم ضعفاءهم وصدهم عن سبيل الله ، وعرف فيها ضعفاؤهم المستكبرين فيهم ،وأطاعوهم خشية وذلة .. إذا ماقورنت هذه الإقامة فى الدنيا بهول الخسارة التى ستلحقهم بالعذاب فى جهنم عند الحشر) . «وإما نرينك بعض الذى نعدهم ، أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على مايفعلون» . (وما يلحقهم من عذاب الله فى الآخرة مما يمثل الخسران العظيم لهم فى حياتهم : لايحول دون أن يلحقهم عذاب الله فى دنياهم وعلى مشهد منك . فإذا توفيت أنت قبل أن تشهد نوعاً من العقاب لهم على كفرهم فى حياتك فاعلم : أنه على سبيل التأكيد : أنهم سينالون جزاءهم فى الآخرة . لأنهم سيعودون إلى الله حتما ، وقدشهد هوكل مافعلوه وسجله عليهم) . «ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ، وهم لايظلمون » . (وقد شاءت إرادة الله أن لا يكون منه رسول واحد إلى الناس جميعاً . وإنما كانت منه رسل عديدون : للأمم والمجتمعات ، وفى الأجيال التى يعقب بعضها بعضاً ، حتى لا يكون هناك ظلم لأحد . فكل أمة فى أى مكان وفى أى زمان شهدت رسولا لها من قبل الله ، وانقسمت على نفسها بعد أن جاءها ، واختلف حول رسالته : بالإيمان بها ، أوبالكفر بها .

وبمجيء الرسول لأية أمة كان عهداً فاصلا فيها بين الحق والباطل ، وبين من هم أصحاب الحق وأصحاب الباطل فى أمته ، وفى جزاء الله لكل من الفريقين لا يظلم فرداً فى أى فريق منهما . لأن من اتبع الحق ، ومن اتبع الباطل فى أمة الرسول قد اتبع ما اتبع بمشيئته ، وفى حدود مسئوليته الفردية والشخصية) .

«ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» ؟ (ويستعجلونك وعد الله لهم بالعذاب لهم فى الدنيا على كفرهم وعبثهم بالباطل ، متحدين إياك إن كنت صادقاً فيما تحمله من وعد الله لهم) . «قل: لا أملك لنفسى : ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» . (ولكن هنالك حقيقتان يجب أن يعلموا بهما : الأولى : أن الكافرين بالرسالة فى كل أمة أو مجتمع ، لعقابهم من الله فى حياتهم الدنيوية أجل محدد ينفذ فيه بدقة ؛ والحقيقة الثانية : أن الرسول لا يملك لمن يكفرون برسالته : العذاب والعقوبة . لأن الجزاء ليس من مهمته ، ولأنه كذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً . والله وحده هو الذى يملك ذلك . والرسول إذاً فى قيادته لمجتمع المؤمنين إن ملك تنفيذ حدود الله .. فإنه لا يملك فى دعوته عقوبة المخالف له . لأن قضية الإيمان والكفر قضية مشيئة واختيار . بينما قضية تنفيذ الحدود قضية التزام بالإيمان .. أى أمر التزمه المؤمن — كما التزم كل واجب وكل حق — عند مادخل الإيمان بالله) .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

وكما أن هؤلاء الماديين المكيين يشكون فى البعث.. فإنهم يشكون أيضاً فى تحقق ما وعدهم به الرسول عليه السلام — وحياً من الله — من عذاب يلحقهم فى دنياهم على الأخص. لأن عذاب الآخرة مفروغ من إنكاره منهم تبعاً ، لإنكارهم البعث واليوم الآخر . ولذا يريد القرآن فى هذه السورة هنا: أن يؤكد وقوعه ، فى صورة : أنه لا ينبغى السؤال عن وقوعه — إذ وقوعه أمر لا شك فيه — وإنما السؤال عن الهدف من استعجال وقوعه : أهو الإيمان بوقوعه ، بعد أن يقع ؟. أما إذا كان الهدف من استعجال وقوعه هو الشك منهم فى وقوعه، فذلك أمر لا يرد مورد الشك على الإطلاق : «قل : أرأيتم إن آتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ . أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون» . (أى أى هدف يستهدفه هؤلاء الماديون المجرمون من استعجالهم لعذاب الله لهم فى دنياهم ؟ إن حل بهم ليلا أو نهاراً ؟ — وبصيغة السؤال على هذا النحو يصرف القرآن النظر عن

أن يكون المقصود بالاستعجال منهم . الشك فى وقوعه. ومدخول الشر لذلك فى قوله : « إن آتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً » .. هو ظرف الوقوع : بالليل أو بالنهار ، وليس الإتيان والوقوع نفسه . وإلا لم يكن هناك داع لتقييد إتيان العذاب بالظرف الزمانى ، بالليل أو بالنهار — أيبتغون من استعجالهم وقوع العذاب لهم فى دنياهم : أن يؤمنوا بوقوعه ؟ويقال لهم عندئذ : آلآن تؤمنون به وقد كنتم تستعجلون وقوعه شكاً منكم فى وقوعه ؟ . إنه واقع لا محالة. وشككم فى وقوعه عن طريق استعجالكم إياه هو شك فى أمر مقرر ، وليس مطروحاً للجدل) . « ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد، هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » ؟ (أما عذاب الآخرة فسيساق إليه هؤلاء الظالمون بماديتهم وانحرافاتهم ، ويقال لهم عندما يساقون : ذوقوا عذاب الخلد. وهم يعذبون : إن فى دنياهم ،أو فى آخرتهم : بسبب أعمالهم السيئة ومسئوليتهم الشخصية عن اقترافها. فالأعمال السيئة لم تفرض عليهم ، وإنما هم سعوا إليها سعياً، واستمروا فى سعيهم لاقترافها ،حتى بعد أن جاءتهم الهداية الإلهية منذرة إياهم: هذا المصير) . « ويستنبئونك : أحق هو ؟ قل إى وربى : إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين » (ويعيد القرآن ثانية : تأكيد وقوع العذاب . بأن يوحى صراحة بهذا التأكيد إلى رسوله عليه السلام : ليعلنه ويبلغه للناس إلى يوم القيامة . فيقول له : إنهم يسألونك عن وقوع العذاب لهم ، ويكررون ويلحون فى التكرار لهذا السؤال . ووقوعه أمر لا شبهة فيه . وهم لا يستطيعون أن يحولوا بين الله وبين أن يأتى به).« ولو أن لكل نفس ظلمت : ما فى الأرض لافتدت به » . (فهو واقع لا محالة. حتى لو أن كل نفس ظالمة كانت تملك ما فى الأرض جميعه وأرادت أن تفدى نفسها بما تملكه فى دنياها . فإنه لا يقبل افتداؤها ، وبالتالى لا تغنى مما تستحقه من عذاب) . « وأسروا الندامة لما رأوا

العذاب » . (وسيعلن هؤلاء الماديون الظالمون — إعلان تعبير فى وجوههم — عندما يتحقق عذابهم فى الآخرة، ويرونه رؤية العين : عن ندمهم على ما اقترفوا من : عصيان، وطغيان بماديتهم ، فى دنياهم). « وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » . (وما ينالهم من عذاب رهيب لم يظلموا فيه إطلاقاً. بل الله العادل يقضى بينهم ويفصل فى الأمر يوم الحساب بين الناس جميعاً . فكل إنسان ينال جزاءه يومئذ : من غير أن يظلم فيه) . « ألا إن لله ما فى السموات والأرض، ألا : إن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (وإن وعد الله حق بعذابهم أمر ثابت لا مرية فيه . فالله له ما فى السموات والأرض . له الوجود كله . هو خالقه ، ومدبره . ولكن تشكك المتشككين فى وقوع العذاب من هؤلاء الماديين المكيين هو نتيجة جهلهم بحقيقة الألوهية وبصفات الله جل وعلا) . « هو يحيي ويميت، وإليه ترجعون». (وإذا كان الله من صفاته : أنه هو الذى يحيي من لم تكن به حياة ، ويميت من كانت له الحياة : ألا يقدر على عذاب المعارضين والمنحرفين والصادين عن سبيل الله ؟ وأنه المرجع الذى ينتهى إليه مصير الناس جميعاً : يبعث الأحياء من قبورهم. يوم تقوم الساعة : أليس يملك الجزاء لهم .. أليس يملك النعيم لمن أحسن ، والعذاب لمن أساء) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

وإذا كان العذاب أمراً محققاً يجب ألا يرتاب فيه هؤلاء الماديون .. فإن أمامهم الآن فرصة مجيء القرآن . فهو تعليم من الله لمن عنده الاستعداد إلى الإيمان . وعلاج لما فى نفوسهم من الأمراض التى تورثها الزعامات والرياسات ، وهو هداية للطريق المستقيم فى السلوك ، ورحمة لهم فى تجنيبهم العذاب : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » : (وكان يجب أن يفرح هؤلاء بالقرآن لأنه فضل من الله عليهم وعلى البشرية كلها ، ورحمة لهم ، فقد جاءبه رسول منهم ، وهو يتلوه عليهم مباشرة . وهو فى أثره المعنوى فى الهداية والرحمة لهم خير من تلك الأموال التى يجمعونها . فهو وقاية من السوء والفحشاء والجرائم الاجتماعية ، بينما جمع المال قد يدفع إلى السوء وارتكاب المنكر) . « قل أرأيتم ما أنزل الله من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون » ؟ (إنكم ترون الآن فى سبيل جمعكم للمال ، ماذا صنعتم بأرزاق الناس ؟ . إنكم تدخلتم فيها وقلتم للضعفاء والتابعين : هذا حلال ، وهذا حرم كى تتيحوا لأنفسكم الفرصة فى أكل أموال الناس بالباطل : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) (١) .. (وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة

---

(١) الأنعام : ١٣٦ .

فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ،إنه حكيم عليم) (١) . . فأنتم قد قلتم حلالا ، وحراماً فى أموال الناس ، ونسبتم ما قلتم فى الحلال والحرام ، إلى الله وافتريتم عليه بذلك ، إذ أنتم تدعون لهم : بأن علم الغيب يصل إليكم ، عن طريق استراق شياطينكم للسمع من الملائكة) . « وماظن الذين يفترون على الله الكذب ، يوم القيامة ؟ . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون » ، (أى أمر يتصوره هؤلاء الماديون الذين يفترون على الله الكذب : يقع لهم يوم القيامة ؟ . أيتصور هؤلاء أن يفلتوا من العقاب وقد ظلموا أتباعهم واستغلوا زعامتهم وكهانتهم فى الاستيلاء على أموالهم زوراً ، وفى الكذب على الله افتراء ؟ . والله جل جلاله صاحب فضل عليهم وعلى الناس جميعاً : بتبصيرهم الطريق السوى . ولكن الكثرة الغالبة لا تسلك هذا الطريق السوى . وإنما تسير فيما تعودت السير فيه . وبذلك ترفض هداية الله ، بدلا من أن تشكره باتباعها والإيمان به . والكثرة الغالبة من الناس تصنع ذلك : لا لأن طريق سيرهم مستقيم فى الحياة ، بل هو معوج فى واقع أمره. وإنما لأن هذه الكثرة كثرة ضعيفة . وهى كثرة الأتباع لغيرهم . وهؤلاء الغير : قلة مستكبرة عاتية ، تقود المجتمعات البشرية لمنفعتها ولحساب المتعة لها . ولذا كانت قيادة هذه القلة فى المجتمعات العديدة قيادة مادية . تعارض المساواة فى الاعتبار البشرى وفى المصلحة .. كما تعارض أن تلتزم بالإيمان بهداية الله . لأنه يفوت عليها مصالح مادية عديدة . فالكثرة مسلوبة الإرادة ، وهى مكرهة على أخذ طريق القادة الماديين. ولكن أمام الله لا يعفى أى طرف من هذين الطرفين باتباع المعوج وسلوك طريق الانحراف . وهذه الكثرة الضعيفة ليس لها عذر إطلاقاً فى تبعيتها لباطل الكبراء والقادة فيهم ، كما قد

---

(١) الأنعام : ١٣٨ ، ١٣٩ .

يظن : (يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا ءاتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً) (١) .. فلم تنفعهم طاعتهم للسادة والكبراء من أن تقلب وجوههم فى النار ، عقاباً لهم على تبعيتهم الذليلة) .

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

وأنت أيها الرسول ـ عليك صلوات الله ـ ما تبذله من أى جهد صغر أو كبر فى سبيل الدعوة لكتاب الله الحكيم ، وما تتلوه من قرآن منه على هؤلاء الماديين بمكة وعلى غيرهم لتبصيرهم بهداية الله ، وما تعمله أنت والمؤمنون معك من عمل يعود على الإيمان بالقوة وعلى المؤمنين بالخير : فإنه مرصود ومسجل منذ أن تباشروه : « وما تكون فى شأن ، وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » . (فالله شاهد ورقيب

(١) الأحزاب : ٦٦ — ٦٨ .

لكل حركة وعمل من البداية إلى النهاية) .« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» . (ومن أجل ذلك لا يغيب عن علمه جل جلاله أى أمر فى الوجود صغر أم بر . وهو مسجل فى سجل لا يمحى ولا يخفى) . « ألا : إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» . (وكجزاء لأولياء الله —وأنت عليك صلوات الله ـ فى مقدمتهم ، وهم الذين يؤمنون بالله ، ويتجنبون كل ما يخالف طاعته — أنهم ، أولا : لا خوف عليهم من أحد . لأنهم لم يسلكوا طريق الظلم والطغيان . وإنما يسلكون طريق الأخوة الإنسانية. وهو طريق التعاون والتواد . وأنهم ثانياً : لا يحزنون على شىء . لأنهم لم يستهدفوا الدنيا ، ولم يحرصوا على ما فيها من : جاه ، ومال وعصبية الأولاد ، والقبيلة ، والحزب. فلا يضيع منهم شىء لأنه لم يكن بيدهم. وإن جاء وبقى فلخير الآخرين معهم . وإن جاء وولى فلم يكن مقصوداً لذاته. وأنهم ثالثاً : أصحاب البشرى بالنعيم وهم فى دنياهم ، وأصحاب النعيم ، والمستمتعون به فى آخرتهم) . « لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم». (وبهذا قضى الله . وقضاؤه لا يرد ولا يبدل . وجزاء أولياء الله على هذا النحو فى مقياس الإنسان للنصر والهزيمة والربح والخسارة ، يعتبر فوزاً عظيما لهم . ويفوق كل متع الحياة الدنيا التى يستهدفها كل معارض لرسالة الله للانسان وكل صاد عن الإيمان به فى أن يأخذ طريقه فى حياة الإنسان والمجتمعات الإنسانية).« ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً ، هو السميع العليم ». (وأنت أيها الرسول — عليك صلوات الله — لا يحزنك ما قالوا وما يقولون فيك ، وفى القرآن .. لا يحزنك ادعاؤهم بأن القرآن من صنعك ، وأنت نسبته كذباً إلى الله .. لا يحزنك إنكارهم للبعث والحياة الآخرة .. لا يحزنك تشككهم

فى عذاب الله لهم فى دنياهم ، وإنكارهم إياه فى الآخرة . . لا يحزنك عدم إيمانهم بكتاب الله وإعراضهم عنه .. لا يحزنك بقاؤهم على عبادة غير الله من أصنام لا تملك النفع والضر ، ولا القدرة على الحياة والموت ، ولا تملك الرزق لمن يعبدها سعة وضيقاً ، ولا تستطيع الخلق أو تعيده ، ولا تقدر على الهداية للحق ، لأنها تفقدها .. لا يحزنك نسبة الولد إليه .. لا يحزنك هذا ومثله من الأهل والعشيرة والأقرباء . لأنهم ماديون لا ينتظر منهم غير ذلك ، وأكثر من ذلك : فى سبيل الاحتفاظ بزعامتهم وسيادتهم فى المجتمع . لا يحزنك هذا ومثله : لأن الله الذى تدعو إلى الإيمان به : له العزة والتفوق فى الوجود كله ، وله القدرة على الإيجاد والخلق والموت والحياة ، والنفع والضر ، والرزق : لا يغلب ولا يعجز : عن نصرك فى دعوتك للحق ، ولا عن هزيمتهم فى تبنيهم للباطل . هو السميع لكل ما يدور فى العلن وفى الخفاء . وهو العليم بكل ما صغر أو كبر فى الوجود كله . وهو معك ومعبودك) .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ *

وإذا كان يجب أن لايحزنك قولهم وادعاؤهم فى شأن كتاب الله . وشأن رسالتك ، وشأنك أنت .. فاعلم : أن من فى السموات ومن فى الأرض يتجهون جميعاً بعبادتهم لله سبحانه ، وأن هؤلاء الماديين فى مجتمع مكة يعبدون فى حقيقة الأمر أوهاماً وتخيلات ، عندما يدعون من دون الله شركاء له ، فليس هناك على الحقيقة شريك فى الألوهية له . وهم فى ادعائهم شركاء لله يتبعون الحدس والتخمين ، وليس الواقع والمنطق : « ألا : إن لله من فى السموات ومن فى الأرض . وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون . هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . (وآية تفرده بالألوهية وحده ، وأن هؤلاء الماديين يعبدون أوهاماً وخيالات : أنه هو الذى ربط السماء بالأرض فيما يدور فيها من حركات ، وكانت إحدى نتائج هذا الربط : أن كان هناك ليل مظلم يهدأ فيه الإنسان ، ونهار مضىء مبصر يسعى فيه لكسب رزقه . وبذلك يتخذ الإنسان من هدوئه فى الليل قوة على العمل فى نهاره . ولكن ربط الكواكب بعضها ببعض لمصلحة الإنسان على الأرض : لايدركه كآية على وحدة الله فى ألوهيته إلا من يسمع إذا وعى للسماع ويستوعب مايسمعه ويراجعه ويقيمه .. أى إلا ذلك الإنسان الذى لم يتخذ موقفاً معيناً ، ملتزماً إياه ، تحت تأثير عوامل البيئة وتقاليد المجتمع ، ولا ينفك عنه ، مهما كان وضوح الدليل شاهداً ضد مايلتزمه) . « قالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ » . (وبالإضافة إلى ادعائهم فى شأن القرآن .. فإنهم يدعون أيضاً : أن لله ولداً .. يدعون أن الملائكة بنات لله : (**فاستفتهم : ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون . ألا إنهم**

من إفكهم ليقولون : ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون) ؟ (١) وبهذا الادعاء يقيسون الله على الإنسان فى أنه ينسل ويحكمون نظرتهم المادية فى أن القوة للانسان تكون عن طريق الأسرة والعصبية . وهم يدعون هذا الادعاء دون أن تكون لديهم حجة عليه . وبذلك يقولون على **الله مالا** يعلمون على سبيل الحقيقة .. يقولونه تخيلا فحسب . ولكن الله جل **جلاله** يختلف عن الإنسان . هو المالك للوجود كله .. لما فى السموات وما فى الأرض . فهو الغنى والمستغنى عن غيره . ولذا ليس فى حاجة إلى ولد وعصبية ، كما هى حاجة الإنسان إلى ذلك) . «قل: إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون» . (ومهما كان من شأن الكاذبين ، ومهما ظهر لهم من طغيان وافتراء .. فإنهم فى النهاية لا ينجحون) . «متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» (ومتاعهم فى الدنيا بالجاه ، والزعامة ، والأموال ، والأولاد ، هو متاع مؤقت وقليل فى نفسه ، بالقياس إلى ما ينتظرهم من عذاب شديد فى الآخرة بسبب كفرهم ، إنهم سيبعثون أحياء من جديد يوم حسابهم – رغم إنكارهم للبعث – وسيرون بأعينهم هذا العذاب . وليس هناك تعادل إطلاقاً بين ما يستمتعون به فى الدنيا ، وما يخسرون من المتعة فى الآخرة ، بسبب ما يلاقون من عذاب طويل الأمد . ولذا بمسلكهم المادى فى حياتهم الأولى لايعدون من الذين أفلحوا ونجحوا ، وإن أغرى استمتاعهم فى الدنيا كثيرين غيرهم (**فخرج (أى قارون) على قومه فى زينته . قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم : ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ،**

---

(١) الصافات : ١٤٩ – ١٥٤ .

فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً (أى طغياناً) فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين) (١) .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

وتذكر سورة يونس الآن ثلاث قصص لثلاثة من المجتمعات المادية جاءتها رسلها بالدعوة إلى الحق ، وبعبادة الله وحده ، وبسلوك الطريق الإنسانى الكريم ، لتحقيق العدل والمساواة فى الاعتبار البشرى بين أفراد المجتمع ، وبطرح الامتيازات التى كان يستمتع بها الكبراء والزعماء فيهم . ومجتمع يونس ، وهو مجتمع حضارى أشورى قديم : كان جزاؤه من الله على إيمانه : ازدهار الحياة فيه بعد ذبول ، ورخاء المعيشة بعد مشقة فيها . أما المجتمعان

(١) القصص : ٧٩ — ٨٣ .

الماديان الآخران فهما من مجتمع قوم نوح الأول ، ومجتمع قوم فرعون مع موسى ، فقد نال كل منهما جزاءه فى الحياة الدنيوية على الاستمرار فى الكفر ورفض الإيمان ، وكان الجزاء بالغرق فى الماء لكليهما : أحدهما بماء الطوفان ، وثانيهما بماء البحر الأحمر . والاستشهاد بهذه المجتمعات الثلاثة يعطى الدليل المادى على أثر الإيمان وأثر الكفر فى الحياة الدنيوية للمجتمعات .. يعطى الدليل المادى على أثر الإيمان فى تغير المجتمع بتمكين أصحاب السلوك السوى من قيادته ، بدلا من العابثين فيه قبلهم .. ويدل على أثر الكفر فى الإطاحة بالزعماء الطغاة وملئهم فى المجتمع ممن كانوا يناصرونهم على الفساد والعبث : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى ، وتذكيرى بآيات الله . فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ، ولاتنظرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين » .

(طلب إلى الرسول عليه السلام : أن يذكر الماديين بمكة : بتاريخ مجتمع نوح وماتم فى أمره ، بعد أن قضى نوح وقتاً طويلا غير عادى فى تذكير قومه ودعوتهم إلى الإيمان بالله وحده ، (**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً**) (١) . فبعد أن اتضح عدم جدوى دعوته فيهم : طلب منهم -- بعد أن أسند الأمر كله لله -- أن يتشاوروا فى الأمر بينهم ، بحيث لايتخلف عن ندوة المشاورة صاحب أهمية فيهم ، وبحيث لا يبقى لبس فى تقديرهم فيما انتهوا إليه من رأى . وحينئذ يأتون إليه فى غير إرجاء . فإن كان ما انتهوا إليه من رأى هو استمرارهم فى الكفر ، وإعراضهم عن دعوته .. فيعلن مخالفته لهم ، وانتماءه إلى المسلمين الذين

---

(١) العنكبوت : ١٤ .

يؤمنون بالله وحده، وباليوم الآخر . وفى الوقت نفسه يصارحهم بأنه لم يؤجر من واحد منهم على دعوته فيما بينهم هذه السنين الطوال . بل أجره على الله وحده . أى لم يبتغ طوال هذه المدة المساعدة على: زعامة ، ورياسة، وتحقيق جاه، أو مال . وإنما ابتغى بها إصلاح حال المجتمع ، ونقل قومه من مستوى العابثين الماديين . . إلى مستوى الإنسانية الفاضل . وهو مستوى الهداية الإلهية . وهم إذا انتقلوا إلى هذا المستوى الفاضل كان كافيه فى الجزاء له).

« فكذبوه ،فنجيناه ومن معه ، فى الفلك، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، فانظر : كيف كان عاقبة المنذرين». (وكان ما انتهى إليه رأيهم فى شأن دعوته : أن كذبوه ولم يؤمنوا بما دعاهم إليه، واستمروا فى ممارسة الظلم والطغيان ومباشرة التفرقة بين الكبراء والضعفاء فيهم فى الاستمتاع بما فى حياتهم الاقتصادية من إمكانيات للمتعة ، وفى المنزلة الاجتماعية والاعتبار البشرى ،وهنا كانت آية الله على صدق نوح فى رسالته. وهى آية مزدوجة : أن نجى أولا : نوحاً ومن آمن به ، فى السفينة التى استوت بهم على الجودى وجعل منهم خلائف ومجتمعات عديدة فى وطنهم الجديد . وأن عاقب ثانياً : أولئكم الزعماء الماديين الذين تولوا معارضته فى مجتمعه الذى أرسل إليه ، بالغرق بالطوفان وفيضان المياه التى التقت وتكونت من الأمطار الغزيرة ، وما انبثق من عيون الأرض التى تفجرت . وتحقق بذلك ماأنذر به نوح قومه من الهلاك ، إن لم يؤمنوا باللهوحده ، ويتجنبوا الطاغوت والإثم والعصيان).

« ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم ، فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين ». (وقبل قصة موسى مع فرعون التالية : أرسل الله رسلا عديدين إلى أقوامهم : بين نوح ..وموسى أرسل إبراهيم . . ولوطاً . . وهوداً . . وصالحاً . . وشعيباً . . ومن ذرية

إبراهيم ، عدا موسى : إسحق ويعقوب ، وإسماعيل . وهؤلاء جميعاً كانوا يأتون بالأمارات الدالة على رسالتهم ،ويحملون معهم : الدعوة إلى الإيمان بالله وحده . ورغم وضوح الأمارات على صدقهم فى الرسالة : فإن أقوامهم لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل فى عهد رسول سبق : أى أن المجتمع المادى رغم توالى الرسالات الإلهية إليه فإنه بقى على كفره وتحديه للرسالة مع أى رسول يرسل إليه فى أى وقت . وذلك لأن منافذ الإدراك لدى الرؤساء والزعماء فيه قد سدت دون القيم الإنسانية العليا التى تأتى بها الرسالة للإصلاح فى المجتمع ، وبالأخص : لإزالة الفجوة المصطنعة بين المستكبرين والمستضعفين فيه : وبذلك طبع على قلوبهم وعقولهم فلا ينفذ إليها القبول للإيمان) :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

، تأتى قصة موسى وهارون فى رسالتهما إلى مجتمع فرعون . وهو مجتمع حضارى طغى فيه زعماؤه ورؤساؤه بالقوة الاقتصادية ،والفنية ، والسياسية ، والعسكرية . واتسعت فيه الفجوة بين فرعون وملئه من المستكبرين وبين

الآخرين المستضعفين فيه . وبالأخص : بين أولئكم الذين هاجروا من بنى إسرائيل إلى مصر ، سعياً وراء الرزق . وبسبب المعاملة السيئة والظالمة التى كان يعامل بها هؤلاء المستوطنون من فرعون وحاشيته . . أرسل الله موسى ومعه هارون برسالة تدعو — بجانب الإيمان بالله وحده — إلى تخليص هؤلاء المهاجرين ، ومنحهم حرية الخروج إلى ديارهم قبل هجرتهم : « ثم بعثنا من بعدهم (أى من بعد الرسل فى الفترة التى بين نوح وموسى) : موسى وهارون إلى فرعون وملإيه بآياتنا فاستكبروا ، وكانوا قوماً مجرمين ». (أى جاء موسى ومعه أخوه هارون إلى فرعون ملك مصر والرؤساء معه فى الحكم . وهم الملأ والعلية فى القوم . وأتى له بالآيات الدالة على صدقه فى الرسالة . وهى تلك الآيات التى كان من بينها ماتلقفته عصا موسى : ما ألقوه سحرة فرعون على الأرض من حبال وعصى خيل للناظر إليها : أنها تسعى وتتحرك . ولكن رغم هذه الآيات استكبر فرعون وعظماء المجتمع معه عن أن يطيعوا دعوته . فمجتمعهم مجتمع صاحب حضارة مادية ، وذو تفوق فى القوة ، والاقتصاد ، والعلم ، ولسياسته أثر على المجتمعات البشرية حوله . بينما موسى فى نظره فى وضع مهين : **(ونادى فرعون فى قومه ، قال : ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين)**(١) . وبذلك رد دعوته واضطهده هو والقلة التى آمنت به من بنى إسرائيل : ولم يرد دعوته إلا لأنه كان طاغياً باتجاهه المادى ، الذى سوغ له أن يرتكب أبشع الجرائم ، لا محافظة على الحكم وحده ، وإنما لإذلال غيره من البشر ممن يحتقرهم ويمتهنهم . ولهذا

---

(١) الزخرف : ٥١ — ٥٤ .

كان هو ومن عاونه على بقاء حكمه من ملئه : من المجرمين الذين لا يرعون حقاً لإنسان) . « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين ». (وما عرضه موسى على فرعون وملئه من الأمارات الدالة على صدقه فى الرسالة : كان الحق من عند الله . ولكن لم يشأ فرعون ورؤساء المجتمع معه : أن يعترفوا بأنه حق ؟ وإلا أقاموا الحجة على أنفسهم أمام أمتهم . بل وصفوه بالسحر المبين .. وصفوه بأنه صنعة حيل وخداع . على نمط ما كانت تفعل السحرة بمصر) . « قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم : أسحر هذا؟ ولا يفلح الساحرون » . (وهنا اعترض موسى على وصف ما أتى به من حق من قبل الله : بأنه سحر . وأكد لهم : أن نهاية السحر هى الإخفاق والكشف عن الخداع . والساحرون لا ينجحون أبداً فى حقيقة الأمر . لأنهم يعتمدون على خفة حركة اليد ، وسرعان ما تظهر حقيقتها . وهو لو كان ساحراً لآمن بأنه سوف لا ينجح فى رسالته إطلاقاً كما لا ينجح السحرة الآخرون . ومن ثم كان لا يأتى إلى فرعون وهو ملك عظيم ، ولا إلى قومه وهم أصحاب حضارة فارعة) . « قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » . (ومن جواب فرعون وملئه لموسى وهارون هنا . يتضح : أن رفضهم لرسالة موسى ليس لأنه كذب فيها على الله ، ولا لأنها لا تمثل الحق والصدق فى موضوعها ، وفى الأمارات الدالة على صحة الرسالة . وإنما لأن أصحاب الحكم فى مصر إذ ذاك والمنتفعين به ، وأصحاب الجاه عن طريقه : يخشون على أنفسهم من قبول الدعوة الجديدة . ولذلك واجهوه فى صراحة : بأنه جاء بالرسالة وبنقد نظام الحكم فيها — لا لغاية إصلاحية فى المجتمع — وإنما لتحويل رياسة المجتمع إليه وإلى أخيه هارون ، بحيث يصبحان أصحاب الجاه والعظمة فى مصر وفى أى مجتمع آخر حولها يتأثر بسياستها . ومن هنا يرفضون دعوته ويبتعدون عن الإيمان

بها . فتشبثهم بما كان عليه آباؤهم من عقيدة أو أسلوب فى الحكم هو تشبث بالتمسك بجاه السلطة والاحتفاظ بكبرياء الرياسة . ورفضهم للدعوة الإصلاحية ليس رفضاً موضوعياً ، وإنما لعدم الرغبة باختيارهم : فى تحويل السلطة وزمام الأمر من أيديهم . . إلى أيدى صاحب الرسالة والمؤمنين بها من أتباعه . وهكذا : كل مجتمع مادى ساد فيه الطغيان تحت تأثير الاتجاه المادى فيه ، يرفض فيه زعماؤه بادىء ذى بدء : كل نقد أو كل رسالة تتضمن تغييراً للوضع القائم . لأنهم يحرصون على القيادة والرياسة فى أيديهم . وإذا ما اتهموا الرسل المرسلة واتهموا رسالاتهم بالتهم التقليدية التى ألفتها المادية منذ القدم إلى الوقت الحاضر . . فإنهم فى قرارة أنفسهم لا يعتقدون فى صدق كثير مما يقولون به .. ولكن للحيلولة دون أن يخرج الضعفاء — وهم البعيدون أو المبعدون عن الرياسات فى المجتمع — أو تخرج كثرتهم من الطاعة لهم ، ويؤلفون مجتمعاً آخر داخل مجتمعهم ، يعمل على تقويضه والاستيلاء على الحكم فيه) . « وقال فرعون : ائتونى بكل ساحر عليم » . (وابتدأ فرعون يعلن تحديه لموسى . فطلب من الملأ : أن يجمعوا له السحرة المهرة ، كى يواجه بهم موسى ، ظناً منه : أن موسى يصطنع السحر فى إقناع المصريين برسالته) . « فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به : السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين » . (فجمعت السحرة المهرة من كل مكان وحدد موعد معين للقاء موسى . والتقى بهم موسى : **(. . فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . قال : موعدكم : يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى)**(١) وطالبهم بأن يلقوا ما بأيديهم على الأرض . فلما ألقوه قال لهم : إنما أتيتم به من

---

(١) طه : ٥٨ ، ٥٩ .

حركات الحبال والعصى على الأرض : إن هو إلا سحر . وسيظهر الآن جلياً بطلانه وباطله : (.. **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر . ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجداً قالوا : آمنا برب هارون وموسى**) (١).

وفعلا أبطل موسى سحرهم واقتنع الساحرون بباطلهم . ولهذا سجدوا الله مؤمنين به وبرسالة موسى . وتجلى لهم : أن عمل المفسدين يتحول إلى دمار ». « ويحق الله الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون ». (وهكذا : يثبت الله الحق بإرادته وبقضائه مهما كان من أثر وجوده على نفوس الحاقدين والمنكرين له فى مجتمع الرسالة).

فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ *

---

(١) طه : ٦٦ ، ٧٠ .

وآمن بموسى نفر من شباب بنى إسرائيل فى مصر .ولكن فى خشيةوفى خوف من سطوة فرعون وسلطانه : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإيهم : أن يفتنهم ، وإن فرعون لعال فى الأرض ، وإنه لمن المسرفين » . (فهو طاغ بقوته وبملكه، وخارج عن حدود الاعتدال فى كفره وتحديه لرسالة الله ، التى من شأنها أن تغير وضعه فى مجتمعه وتحقق المساواة فى الاعتبار البشرى بينه وبين غيره فيه. ولذا : من آمن بموسى : آمن وهو عرضة للعذاب والانتقام).« وقال موسى : يا قوم : إن كنتم آمنتم بالله، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » . (وعندما أحس موسى بقلق الشباب المؤمن برسالته : دعاهم إلى التوكل على الله ، إن كانوا خاضعين له ولدينه.فالتوكل على الله قوة لا تنفد عند مقاومة الشر ، ورد الاعتداء ،وفى سلوك الطريق إلى الخير وحده .والتوكل على الله يتطلب أولا : استجماع العدة والطاقة البشرية، وتصميم الإرادة الإنسانية، ثم ثانياً : مناشدة الله العون والظفر). «فقالوا : على الله توكلنا : ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » . (واستجاب هذا الفريق المؤمن من الشباب لمادعاهم إليه موسى وتوكلوا على الله واتجهوا إليه بالدعاء : أن لا يعرضهم لعذاب فرعون وملئه فهم قوم ظالمون ..وأن يظلهم برحمته وينجيهم منهم ومن كفرهم) .« وأوحينا إلى موسى وأخيه : أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » . (وكان رد الله سبحانه على دعاء هذه الزمرة من الشباب التى آمنت بموسى ورسالته : أن أوحى إلى موسى وهارون معاً : بأن يهيئا للمؤمنين بهما بيوتاً فى مصر ، وأن يتخذا من هذه البيوت أمكنة لإقامة الصلاة فيها ، إلى أن يأتيهما وحى آخر بطريق النجاة والخلاص من فرعون وشرذمته فى الحكم والتسلط .. وأن يبشرا هؤلاء مقدماً :

بانقاذهم مما هم فيه . والله إذ يطلب من موسى وأخيه هارون : أن يمارسا مع المؤمنين القلة بهما ، عبادة الصلاة فى المنازل .. فلكى تزكى نفوسهم ، وتشحن عزائمهم بقوة التماسك على الإيمان ، والتمسك به كطريق وحيد للنجاة. وهذا يدل على أن التوكل على الله ليس عبارة تقال . إنما هو ممارسة قربى إلى الله .. ممارسة صفاء النفس بما يجعلها قادرة على اجتياز العقبات فى الحياة. وعقبات الحياة هى ما تمليه شهوات النفس من جاه ، ومال ، وولد ، وما يمليه هواها كذلك من حب للذات . وأداء عبادة الصلاة فى سرية — بمنازلهم — هو احتياط لهم من بطش فرعون وملئه . وهكذا : ينبغى للمؤمن أن لا يعرض نفسه جهاراً لخطر الطغيان طالما لم يستطع رده). « وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه : زينة ، وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا : ليضلوا عن سبيلك ربنا : اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا ، حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . (وبعد أن تأكد موسى من صلافة فرعون واستكبار قومه عن الإيمان بدعوته ، بعد تلك الآيات المادية التى توالت لتقيم الحجة على صدقه فى الرسالة : لم يملك إلا أن يتجه بالدعاء إلى الله جلت قدرته : ليغير قادة هذا المجتمع . ويأتى بدلا منهم بقادة آخرين ، لا يطغون بالحضارة المادية كما طغى فرعون والرؤساء معه . فقد أعطاهم الله زينة الحياة الدنيا : من جاه .. ومنزلة اجتماعية وسياسية . . وأبهة فى المظهر والسكن والخدم ، كما حباهم بالمال ، وأصبحت لهم قوة كبيرة به . ولكنهم أساءوا استخدام ما أنعم الله به عليهم من نعم ، وعلوا فى الأرض علواً كبيراً ، ومارسوا الظلم ، والفساد ، والعبث وكان من مقتضى هذه النعم أن يؤمنوا به ، لا أن يستمروا فى الكفر والسخرية بالإيمان بالله وبالمؤمنين به . ودعا موسى ربه : أن يزيل أموالهم

وجاههم ، وذلك بإبعادهم عن الرياسة والزعامة .. كما دعاه : بأن يسد سبيل الإيمان به عليهم ، وأن يغلق قلوبهم دونه .. إلى أن يأتيهم العذاب فى دنياهم أو فى آخرتهم . وموسى بدعائه هذا يريد أن يؤكد : عدم إيمانهم من جهة ، وبالتالى استحقاقهم ماوعد الله به من جزاء الفاسقين والمسرفين من جهة أخرى. وقد استجاب الله لدعائه ودعاء أخيه معه . ولكن طلب منهما الاستمرار على طريق الاستقامة ، وهو طريق الإيمان بالله . وحذرهما من الاعوجاج والانحراف والتردى فى سبيل الجاهلين . وهو سبيل الذين يستهدفون مصالح دنيوية من وراء الدعوة لقيم عليا إنسانية . فلا يستعجلان عذاب فرعون وقومه من الرؤساء والزعماء تنفيساً عما فى صدريهما من ضيق ، وما فى نفسيهما من مرارة العناد والكبرياء اللذين لاقاهما منهم) .

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

وانتهت قصة موسى مع فرعون : بنجاة موسى والمؤمنين معه من بنى إسرائيل بمصر ، وبإغراق فرعون وجنوده فى البحر : مع إحلال زعماء آخرين فى قيادة المجتمع المصرى محلهم : (فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهواً (أى منفرجاً ، على نحو ما انفلق عليه عند مرور موسى إلى الضفة الشرقية فى سيناء) إنهم جند مغرقون . كم تركوا (أى بنو إسرائيل بمصر) من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين (أى ناعمين) . كذلك ، وأورثناها قوماً آخرين (أى أحللنا قوما آخرين

بدلا من فرعون وجنوده : فى تلك الجنات والنعم) . فما بكت عليهم السماء والأرض (أى ما بكى أحد فى الكون كله : على فرعون وجنودة ، ولم يأسف على ذهابهم بالغرق مخلوقاً) وما كانوا منظرين) (١) . وقد رعى الله موسى وهارون والمؤمنين معهما عندما جاوزوا البحر الأحمر من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى منه : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين» . (فبينما كانت النجاة لهم كان الغرق لفرعون وجنودة ، الذين أسرعوا لملاحقة موسى ومن معه بغياً وظلماً . ولم يعرف فرعون : رب العالمين إلا عندما لم يجد خلاصاً من العرق . وفى هذه اللحظة اعترف بوحدته وبأنه : لا إله إلا الله : وآمن به كما آمنت بنو إسرائيل من قبل وهم بمصر على عهده ، وأعلن أنه من المسلمين . أى أنه فى عداد المسلمين ، بعد ما رأى بعينه الدليل على قدرة الله تعالى فى انفلاق البحر إلى جانبين : بينهما طريق أرضى فى قاعه يوصل من الغرب إلى الشرق ، مر به موسى فى أمان ، ولم يكد فرعون يطأ بقدمه هذا الطريق حتى عادت المياه على الجانبين إلى الاندماج وبذلك غطته ولم يستطع أن يعلو فوق سطحها) .

ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

وفرعون عندما أعلن إيمانه بالله وحده ، أعلن ذلك فى وقت لم يكن مختاراً فيه . فإيمانه الآن لايعكس إرادته الإنسانية . ولذا فهو غير مقبول

---

(١) الدخان : ٢٣ – ٢٩ .

عند الله : « آلآن» (أى فى هذا الوقت بالذات تعلن الإيمان ؟ وما عسى إيمانك ينفع وأنت لاتستطيع أن تمارسه فى تصرفات أو فى عمل، لأن الموت مدركك فى هذه اللحظة ؟). « وقد عصيت قبل، وكنت من المفسدين ». (وطوال حياتك قبل هذه اللحظة كنت تتزعم الفساد والطغيان ، وكنت خارجاً عن طاعة الله فى كل تصرفاتك ومواقفك، وبالأخص من أولئكم المستوطنين من المهاجرين من بنى إسرائيل ولم تسمع لإنذار موسى واحتقرته) . « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » . (وإن قضاء الله بموتك عن طريق الغرق لنافذ . إذ لا راد لقضائه . ولكن بدنك — بعد موتك — سيطفو على سطح الماء . وبذلك ينجو ليكون عبرة لمن يخلفك فى الزعامة . إذ أن كثيراً من الماديين يتجاوز آيات الله فى كونه وفى هدايته ولايقف عندها قليلا ليتعظ بها . فلعل مثل هذه العبرة تثير الذكرى وتقنع النفوس بالاستجابة إلى هداية الله والسير وفقها) .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

أما بنو إسرائيل بعد عودتهم من مصر ، ونجاتهم من غرق البحر مع موسى وهارون . فإن الله قد أنزلهم . منازل صالحة فى أرض كنعان ، ورزقهم من طيبات هذه الحياة : « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات » . (وبعض المفسرين — كصاحب الكشاف — يجعل مصر ضمن الأرض الصالحة التى وهبها لبنى إسرائيل بعد نجاتهم من الغرق . ولكن ماجاء فى سورة الدخان فى قول الله تعالى : **(كم تركوا (أى فى مصر) من جنات وعيون وزروع ، ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين)**(١) . يقطع بأن مصر لم تكن ضمن المنزل الصدق ، الذى أنزلهم به

---

(١) الدخان : ٢٥ — ٢٨ .

الله.إذ ورث ما كان لهم : لغيرهم من المصريين ، ولم يعودوا إليها ثانية). «فما اختلفوا حتى جاءهم العلم». (ولكن مع نعمة الله على بنى إسرائيل عامة : بنعمة النجاة والخلاص من الغرق ، والخلاص من عذاب فرعون . ونعمة السكن والإقامة الصالحة بعد ذلك.. ونعمة الرزق الطيب الحلال ..مع هذه النعم : فإنهم لم يظلوا على إيمانهم بالله وحده على طاعتهم لهدايته . ولكنهم اختلفوا وانشقوا فى اعتقادهم وسلوكهم . ولم يعد ما يعتقده بعضهم وما يسلك يتفق مع هداية الله التى أتى بها فى التوراة : كتاب الله ، رغم أن هذا الكتاب بأيديهم .. ورغم أنهم يعلمون ما جاء به. ولكن اتجاه المادية انحرف بالزعماء فيهم إلى الطغيان ، وإلى اقتراف الجرائم فيما بينهم « وإذ أخذنا ميثاقكم : لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم (ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم : أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون . ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم : ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟) (١) .

ولأجل كفر بعضهم بما جاء به موسى .. كان القرآن الكريم – فى جزء كبير من رسالته – لتصحيح ما اختلف فيه بنو إسرائيل . (إن هذا القرآن يقص على

---

(١) البقرة : ٨٤ – ٨٧ .

بنى إسرائيل : أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ، إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم) (١) .

ومن هنا لاينبغى أن يقال : إن ما بقى فى كتاب الله قبل القرآن : يساوق القرآن ويماثله فى إعلانه لهداية الله ورسالته للإنسان على هذه الأرض. يقال : إن دين الله واحد ، وهو الإسلام ، منذ أن أرسل رسول على الأرض. ويقال : إن دعوة الله إلى الإيمان واحدة ، وهى الإيمان بالله وحده رب العالمين. ولكن لايقال : إن رسالة أى رسول بقيت — لم تؤول ولم تحرف — على ما كانت عليه . . إلى أن جاءت الرسالة التالية على لسان رسول آخر . لأن الرسالة التالية جاءت لتصحيح الانحراف فى رسالة الله السابقة ، ولتعيدها إلى صفائها. وتلك هى رسالة القرآن الآن : آخر الرسالات الالهية). «إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون». (وإذا كان زعماء بنى إسرائيل قد كفروا بما جاء به موسى فى التوراة رغم علمهم به . . فإنه من المنتظر : أن لايؤمنوا بالقرآن . لأن كفرهم بما جاء به موسى هو كفر بالروحية الإنسانية ، تحت التأثر بالمادية وانحرافاتها . فذلك : عدم الإيمان بالقرآن للسبب نفسه : **(أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون ؟ . . واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون)** (٢) . ولذا فواجب الرسول محمد عليه الصلاة والسلام نحو دعوته : أن يسير بها قدماً ، دون أن يؤمل الكثير فى إيمان بنى إسرائيل ، وأن يترك الحكم فى شأنهم إلى الله عز وجل يوم القيامة . فهو الذى يفصل فيما اختلفوا فيه من : كفر . . وإيمان) .

---

(١) النمل : ٧٦ — ٧٨ .

(٢) البقرة : ٤٤ — ٤٦ .

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

ويتجه القرآن الآن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أكد للماديين المكيين فى هذه السورة : أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الحكيم (تلك آيات الكتاب الحكيم) .. وأنه الحق من عند الله : (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل : إى وربى : إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين) .. ليزيل ماقد يخالج نفسه من شك ، كأثر لاتهامات هؤلاء الماديين : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » (أى فإن كنت أيها الرسول صلوات الله عليك — بعد تفنيد اتهامات المعارضين لدعوتك بشأن القرآن ، وبعد التأكيد بأن القرآن من عند الله — فى شك فى أنه من عند الله ، تحت التأثر باتهامات هؤلاء المعارضين : فاسأل من قبلك ممن يقرءون التوراة والإنجيل . . اسألهم عما جاء فيها أوحى إليك من عقيدة التوحيد ومنهج السلوك فى الحياة ، وعما جاء فى الكتاب من التوراة والإنجيل من عقيدة ومنهج السلوك فى الحياة كذلك : ستجد حتما : توافقاً بين الإنجيل

والتوراة أولا : (**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين**) (١) وستجد توافقاً آخر ثانياً : بين القرآن من جانب وماسبقه من كتاب ، من الإنجيل والتوراة من جانب آخر (**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**)(٢) . وفى التوافق بين القرآن والكتاب الإلهى السابق ما يؤيد أن القرآن وحى من عند الله ، وليس من وضع إنسان . والقرآن مع كونه متفقاً فى الأصول العامة للعقيدة والشريعة مع الكتاب السابق .. فإنه مهيمن وحكم عليه .. أى فإنه المرجع الذى يرد إليه الكتاب السابق ، من الإنجيل والتوراة : عند الفصل بين الرسالة التى أتى بها الرسول السابق ، وما طرأ عليها من تصحيف أو إخفاء . على نحو ما صنع بنو إسرائيل فى التوراة : من تجزئتها إلى أجزاء وأقسام : يظهرون البعض ويخفون البعض الآخر ، مما يشير إليه القرآن فى قول الله تعالى : (**تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**)(٣) « لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » . . (وبالموازنة والمقارنة إذن : بين ماجاء فى القرآن ، وماجاء فى الرسالة السابقة عليه من الإنجيل والتوراة : يتضح أن الذى جاء للرسول عليه السلام من القرآن هو الحق من ربه . وإذن ليس هناك أى سبب لتصور الشك أو توهمه فى كون القرآن من عند الله ، سواء فى نفس الرسول عليه السلام كبشر ، أو فى نفس أى واحد آخر يعتمد على الواقع والمنطق فى الإقناع والاقتناع) . « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله . فتكون من الخاسرين » (ويجب أن يزال الشك فوراً بالمنطق والواقع إلى غير رجعة . وإلا : فالشاك

---

(١) المائدة : ٤٦ (٢) المائدة : ٤٨ (٣) الأنعام : ٩١

فى كون القرآن من عند الله لو بقى فى نفس الشاك سيوصل إلى التكذيب به ، وعندئذ يكون المكذب من الخاسرين يوم الحساب . والقرآن بدعوة الرسول عليه السلام إلى تجنب الشك إنما يعالج قضية بشرية ، ويساير الطبيعة الإنسانية فى خصائصها . ومن أهم خصائص هذه الطبيعة : التأزم فى الشدائد. والتأزم يجر إلى الشك حتى فى نفس الإنسان الشاك .. كما قد يجر إلى اليأس . هنا لايبالى اليائس بكفر ، ولا بإيمان. وقصة هرب يونس من مجتمعه ، بعد قطعه الدعوة إلى رسالته فترة من الزمن.. أمارة على ضيق الصدر وخيبة الأمل التى تمكنت منه. والرسول عليه السلام تعرض للشدائد النفسية والمادية . ومن أهم شدائده النفسية موقف الزعماء من أقاربه — وهم رؤساء المجتمع المادى المكى — من دعوته ، والتآمر عليه ، والقسوة فى الحكم على مايدعو إليه ، وهو عليه السلام يريد لهم الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وبتسجيل هذه الدعوة للرسول عليه السلام فى القرآن : يعطى البينة على أن القرآن لم يكن من صنع الرسول ، كماادعى الماديون فى القديم أو يدعون فى الحديث . إذ لو كان من صنعه ما سجل إمكان الشك فيه : إليه ، وما سجل كذلك الإنذار بالخسران له إن هو كذب بآيات الله ، أى كذب بالقرآن) . « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » . (وفى الوقت الذى يدعو فيه القرآن الرسول عليه السلام : إلى الترفع عن الشك فى وحى الله خشية التأثر بموقف المعارضين لدعوته .. يوضح له : أنه يجب أن يكون مطمئن النفس حيال هؤلاء المعارضين . فقد لزمهم قضاء الله : بأنهم لايؤمنون ، مهما أجيبوا إلى طلبهم : بأن يأتيهم الرسول بآيات مادية من عند الله — غير القرآن — تدل على صدقه فى الرسالة . وسيظل حالهم من عدم الإيمان هو الحال الدائم لهم : إلى أن يحل بهم عذاب الله : فى دنياهم أو فى آخرتهم . وتركهم وشأنهم عندئذ ، أى عدم الأمل فى إيمانهم ، خير سبيل

يتخذ نحوهم) . « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا، ومتعناهم إلى حين» . (وليس المجتمع المكى المادى هو وحده المجتمع المادى الذى ليس على استعداد للإيمان إلى أن يحل به عذاب الله، فى الدنيا أو فى الآخرة . بل المجتمعات المادية السابقة كلها لم يؤمن بعض زعمائها برسالة الرسول المرسل إليه، بحيث كان إيمان هذا البعض ينفع المجتمع ويدفع عنه عوامل الهلاك والتغيير . إلا مجتمع يونس. وهو مجتمع أشورى قديم ، كان فى عاصمة الآشوريين على الضفة اليسرى من نهر دجلة ، فى مواجهة مدينة الموصل. وهذا المجتمع أبيد فى عصر الإمبراطورية الآشورية الأولى ، بسبب الذنوب والأخطاء التى ارتكبها أهله . ولكن حياته ازدهرت فيما بعد، فى عهد الإمبراطورية الآشورية الثانية لمدة ما، إثر عودته إلى الله والإيمان به . ويونس — ويلقب بذى النون — أى صاحب السمك أو الحوت . وذلك لأن الحوت قد التقمه . وقد كان رسولا للآشوريين فى عاصمتهم، لفترتين تخللهما انقطاعه عن مباشرة الرسالة لوقت ما . فبعد أن أعرضوا عن دعوته، وتجاهلوا إنذاره بالعذاب لهم ، واستعجلوا العذاب تحدياً إياه . . رحل وهو فى ظروف غير مشجعة لما ظهر من خيبة الأمل فى رسالته. وبقى فى هذه الظروف ، وذهب إلى الماء فى نهر دجلة وأخذ السفينة هارباً . ولكن بحارتها تشاءموا به، إذ ساءت الأحوال الجوية عند قدومه ورموه فى الأمواج . فالتقمه الحوت . وفى عمق الظلام نادى ربه واعترف بضعفه: وهو ظلام الليل وظلام الأمواج ، والظلام فى بطن الحوت، ثم ظلام النفس وكآبتها. فغفر الله له ، وقذف به إلى اليم ، وأنبت عليه شجرة تظلله، وهو فى حال ضعف نفسى وبدنى ، حتى إذا استجم وقوى . . نشط فى رسالته، وعاد إلى قومه لفترة ثانية . ونجحت دعوته آنئذ وآمن بعض زعماء مجتمعه ، وعاد من إيمانهم : نفع لهذا المجتمع . فازدهرت الحياة فيه من جديد، ورفع الله عنهم خزى المعارضة

والصد عن سبيل الله فيما مضى ، ومتعهم بالحياة الدنيا إلى حين انتهاء آجالهم) .
« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ . وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . (ومما يجب أن يزيد فى اطمئنان نفس الرسول عليه السلام : أن إرادة الله تقضى بعدم إيمان الناس جميعاً على الأرض. وهذه الإرادة الإلهية مبدأ من المبادىء التى تحكم المجتمع البشرى ككل .. فالله قد أنظر إبليس ، وأمهله فى مباشرة عمله من الإيحاء بالشر والفساد ، والكفر والضلال .. إلى يوم البعث : (**قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فانك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المتخاصين**) (١). ومعنى هذا الإمهال : وجود الشر فى أعمال الناس ، ووجود الكفر والفساد فى اعتقادهم إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم قيام الساعة . فإذا انتهى الكفر ينتهى معه الإيمان ، وتنتهى معها الحياة الدنيا بأكلها ، وإذا بقى الإيمان بقى معه الكفر واستمرت معهما الحياة الإنسانية فى مرحلتها الأولى . وإذا كان وجود الكفر والإيمان معاً من مبادىء المجتمع البشرى ككل ، فإن أى رسول بدعوته لايمكن أن يحول الناس جميعاً إلى الإيمان . لأن ذلك ضد إرادة الله . وما كان ضد إرادة الله لايمكن لبشر ، مهما قربت صلته بالله ، أن ينفذه . وهنا يجب عليه –عليه السلام– أن لاتنخلع نفسه وتنزعج بسبب معارضة المكيين الماديين له ، طالما هو لايقصر فى شأن دعوته ، حسبما جاء به الوحى الإلهى . فكل نفس تؤمن فبمشيئة الله لأنه وفقها إلى الرجوع إلى العقل . وكل نفس أخرى تبقى فى دنس الكفر فلأنها ابتعدت عن استخدام العقل ، مجرداً عن التأثر بالأهواء والشهوات . فهى نفس نجسة تميل إلى المادية المظلمة فى اتجاه الحياة) .

---

(١) سورة ص : ٧٩ — ٨٣ .

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

ولا تستطيع مثل هذه النفوس الدنسة أن ترتفع فوق الأهواء والشهوات، إن هى نظرت إلى ما فى الكون : ما فى السموات والأرض، من نظام وإبداع فى الحركة وفى الترابط ، وفى التفاعل المشترك نحو الهدف المعين من تحقيق الحياة للإنسان على هذه الأرض . ولذا لاتنفعها الدعوة إلى النظرة فى الوجود ولا تنقلها الأمارات الدالة على وجود الله أو صدق الرسول : من وضعها القائم . . إلى الوضع الآخر الذى يعبر عن الإيمان بالله وحده . «قل: انظروا ماذا فى السموات والأرض، وما تغنى الآيات ، والنذر، عن قوم لايؤمنون». (وكما لاتنفعها الأمارات المادية فى التحول عن الكفر .. كذلك لا تنفعها فى هذا التحول تلك النذر التى تأتى بها الرسل : بعذاب الله . لأن استغراقها فى حياة الزعامة ، والترف ، واستمتاعها بمتعة الجاه والقوة المادية: لايجعل لها منفذاً ترى منه الوجود على حقيقته .فالوجود فى نظرها ملون بلون خاص، أو هى لونته بهذا اللون الخاص ، بحيث لاتستطيع أن تبصر ما سواه فيه) . « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل : فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . ثم ننجى رسلنا ، والذين آمنوا ، كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين » . (وطالما لاتنفع هؤلاء الماديين: نظرة إلى الوجود ..ولا آيات وأمارات مادية توصل إلى وحدة الله فى ألوهيته ، أو إلى صدق الرسول فى رسالته . . ولانذر بعذاب الله ، على استمرارهم على العصيان والكفر..

فإنه سيلحقهم حتما ما لحق أمثالهم فى الماضى من هلاك المستكبرين وتغيير زعامتهم فى المجتمع . أما المؤمنون فيه ، فإن الله وعد بإنجائهم مع رسلهم. وهو وعد صادق وثابت ، ألزم به نفسه) .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

وطالما : أنه ليس من وظيفتك أيها الرسول أن تكره هؤلاء المكيين الماديين على الإيمان بالله .. وطالما : أن نفوسهم تلتزم الاتجاه المادى فى حياتها، وبالتالى لاتستطيع أن تتحول إلى الإيمان به .. وطالما أن الإقناع بالمنطق أو بالمحسوس لايجد طريقاً إلى هذه النفوس: فأعلن هؤلاء الناس بأمرين رئيسيين . الأمر الأول : وقوفك عند حد ماتدعو إليه ، والتزامك به، وعدم تحولك إلى جانبهم فيما يعتقدون ، أو يسلكون ، طالما هم مصرون على البقاء على ماهم عليه ، ولا يستجيبون لما تدعوهم إلى دين الله : « قل : يا أيها الناس إن كنتم

فى شك من دينى » . (أى إن بقيتم على الشك فى دين الله ، والإصرار على عدم انتقالكم إليه) . « فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله » . (فأنا لاأتحول إلى ما تعبدون أنتم من شركاء غير الله) . « ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ، ولاتكونن من المشركين . ولاتدع من دون الله ما لاينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين» .(ولكن سأظل أعبد الله وحده. وهو رب العالمين. إذ قد أمرت من قبله سبحانه : أن أكون من المؤمنين به، وأن أخلص فى اتجاهى فى الحياة لدينه: فلا أعتقد إلا ما يوصى به، ولاأسلك ولاأعمل إلا طبقاً لما جاء فى هدايته . ومحال أن أكون من المشركين به ، والداعين لغيره ، مما لاينفع ولايضر فى هذه الحياة . . مما هو عديم القيمة والأثر فيها . فربى الذى أتجه إليه فى حياتى : هو الذى يتوفاكم ، كما خلقكم وأنشأكم) . « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله» . (وهو وحده الذى يرفع الضر عن الإنسان إذا ألم به .. هو وحده الذى يشفى المريض، ويشبع المحروم، ويسر المكلوم ، ويعيد الأمل إلى نفس اليائس . وهو كذلك وحده الذى يحفظ للانسان ما تفضل به عليه من نعمة : الصحة ، والعلم، والعقل، ويسر الحال ، ورضاء النفس ، وطيب العلاقة فى الأسرة مع الآخرين، ولايستطيع كائن ما مهما كان شأنه فى الوجود : أن يسلب خير الإنسان مماتفضل به مولاه عليه ، إذا شاء الله أن يحفظه له) . «يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم » . (وفضل الله على الإنسان يتقيد بمشيئة الله وحده . ولايتقيد بإيمان أو كفر به(**الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء ، وهو القوى العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وماله فى**

الآخرة من نصيب) (١) . ومع عموم مشيئته فى الخير : للمؤمن والكافر به على السواء .. فهو من صفاته جل شأنه : الغفران، والرحمة، يغفر لمن عاد وأناب إليه : ما قدم من ذنب على إيمانه ، ويدخله فى رحمته). « قل : ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ».(الأمر الثانى ممايعلن بهالرسول عليهالسلام الماديين : تأكيد أن ماجئت به -- أيها الرسول - إليهم من عنـد الله - وهوالقرآن - هو الحق من رب العالمين ،وهو ربهم،رغم ما واجهوك به من اتهامات فى شأنه ،مما قالوه هنا : من أنهعمل لك وأضفتهإلى الله كذباً، ومن أنهم طلبوا إليك أن تبدله بقرآن آخر ، لاينقد ما هم عليه من وضع اجتماعى فاسد واعتقاد باطل ، وما هم فيه من عبث . وفىإعلانالرسولعليه السلام فى آخر السورة : تأكيد : أن ماجاء به هو الحق من قبل الله،وليس من كائن من كان .. ما يعيد إلى الأذهان ما ابتدأت به السورة من وصف ما جاء : من أنه الكتاب الحكيم من قبل الله ، فى قوله فى شأن القرآن : (تلك آيات الكتاب الحكيم) . فسورة يونس تهتم بالقرآن وبصدقه فى الدرجة الأولى . وتستطرد فى ذكر أحداث المجتمعات الماديةالسابقةلتبرهن على : أن رفض المكيين للقرآن ليس لأية شائبة من وهن فيه . وانما - كشأن أى مجتمع مادى سبق لأنه تحول بينهم وبين الإيمان به عقبة المادية، والوقوع تحت تأثيرها . ولتبرهن أيضاً على أن مصير هذا المجتمع المادى المكى سيكون نفس المصير لأى مجتمع مادى سبق، وهو السقوط ،وتغيير الزعامة والقيادة فيه **(فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوماً غيركم ، ولاتضرونه شيئاً، إن ربى على كل شىء**

---

(١) الشورى : ١٩ ، ٢٠ .

حفيظ)(١) « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ».
(وحيث قد استبان أن ما جئت به أيها الرسول من القرآن — وهو كتاب الله — هو الحق صدقاً من عند الله : فالأمر عندئذ ليس أمر شك فيه ، وليس أمر معارضة وكفر به . إنما الأمر الآن : أمر المصلحة للانسان ، وللمجتمع . لأنه أمر الهداية والضلال . فمصلحة من يهتدى به هى مصلحة شخصية . وضرر من يضل ويكفر به هو ضرر شخصى كذلك. وإن لم تظهر المصلحة ، والضرر على الأمد القريب ، فإنها تظهر حتما على الأمد الطويل فى حياة الإنسان ، أو فى حياة المجتمع) . « وما أنا عليكم بوكيل » (ووظيفة الرسول فى شأن الهداية والضلال : ليست هى وظيفة الحارس أو صاحب السلطة الذى يكره على الإيمان) . « واتبع ما يوحى إليك » : (إنما هى وظيفة المتبع لوحى ما يأتى إليه : فى دعوته ، وفى قدوته ، وفى تطبيقه . والرسول إذن هو المثل الأعلى للمؤمنين بدعوته . ولذا : السنة القولية والعملية للرسول محمد بن عبد الله كانت حجة فى دين الله . لأنها تعكس اتباعه لوحى الله ، وطاعته فيه) : « واصبر حتى يحكم الله » . (وفى الوقت الذى يتبع فيه الرسول وحى الله إليه ، ويكون فيه المثل الأعلى — ككل داعية لدين الله بعده — يجب أن يتحمل معارضة الماديين فى المجتمع الذى أرسل إليه . وهى معارضة لا تقوم على حجة أو منطق . إنما تقوم على تلبيس ، وعلى غوغائية ، وعلى أكاذيب خادعة . كشأن المادى فى تبرير ما يذهب إليه . وفى تحمل الرسول وصبره ينتظر حكم الله بينه وبينهم ولا يستعجله أحد العذاب فإن قضاء الله آت لا ريب فيه : (**ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة . ولا تستقدمون**)(٢) . «وهو خير الحاكمين » (والمولى جل شأنه هو خير من يفصل بين الحق والباطل ، وبين المؤمن والكافر ، وبين الصالح والعابث وبين المستقيم والمعوج . فهو القادر ، وهو الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا

---

(١) هود : ٥٧ .
(٢) سبأ : ٢٩ ، ٣٠ .

أحصاها ، وهو العادل لايظلم ، ولا ينتقم ،وهكذا : على رسول الله — وعلى الداعي بعده لدين الله ، والمتحدث باسم دين الله — مواجهة المعارضين له : بالحق ، وبإعلان صوابه وخطئهم مهما كانت قوتهم ، ومهما كان لهم سلطان فى الإذلال والإرهاب : فى رياستهم وزعامتهم . وعليه الصبر والتحمل فى سبيل دعوته ، لاييأس ، ولا يضيق صدره ، ولا يحزن . وينتظر قضاء الله فهو لايتأخر ولا يتقدم . وليست لرسول الله — ولا للداعى بعده — ولاية أو سلطة على الإيمان والكفر . ولذا ليس هناك مكان فى الإسلام لحكم دينى وحكومة إلهية تعصم عن الخطأ .. وليس فى الإسلام كذلك مكان لكنيسة أو لهيئة تحتكر لنفسها القول باسم الله . (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) . والإيمان باق إلى يوم البعث ، والكفر باق كذلك إلى يوم البعث . (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها) ..

رقم الايداع ٥١١٢ ـ ١٩٧٦
الترقيم الدولى ٢ ـ ٣٥ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

دار غريب للطبــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩